

الكتاب الثاني

نهاية دولة الإسلام في الأندلس

٨٧١ — ٨٩٧ هـ : ١٤٦٦ — ١٤٩٢ م

الفصل الأول

الأندلس على شفا المنحدر

انحلال مملكة غرناطة . ابن الخليل وشعوره بمصير الأندلس . تشاؤم ابن خلدون . مملكة غرناطة ، وعون بنى مرين . تربع أسبانيا النصرانية . ولاية السلطان أبي الحسن . استرداد بعض الحصون . خروج أخيه أبي عبد الله الزغل عليه . عقد الصلح بينهما . اتحاد أسبانيا النصرانية . فرديناند يطالب بإداء الجزية . أبو الحسن يغزو أرض النصارى . استيلاؤه على قلعة الصخرة . طفيان أبي الحسن . الأميرة عائشة ملكة غرناطة . زواج السلطان أبي الحسن بشريا النصرانية . الزواج المختلط وأثره في انحلال المجتمع الأندلسي . التنافس بين الملكة الشرعية وثرىا . اعتقال الأميرة عائشة وولديها . انقسام الزعماء والقادة . استئثار ثرىا بالسلطة . سعيها لسحق أبي عبد الله ولد عائشة . فرار الأميرة عائشة وولديها . ظهور دعوتهم في وادى آش . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لمدينة الحامة واستيلاؤهم عليها . فشل أبي الحسن في انقاذها . مهاجمة فرديناند لمدينة لوشة . انجاده وهزيمة النصارى . الثورة في غرناطة . فرار أبي الحسن الى مالقة . جلوس ولده أبي عبد الله على العرش . مسير النصارى الى مالقة . هزيمتهم الفادحة . خروج أبي عبد الله الى الغزو . هزيمة المسلمين عند حصن اللسانة . أسر النصارى لأبي عبد الله . الاضطراب في غرناطة . نزول أبي الحسن عن العرش لأخيه أبي عبد الله الزغل . السعى الى افتداء أبي عبد الله . اتفاق الأميرة عائشة مع فرديناند على اطلاق سراحه . ضعف أبي عبد الله ومشاريع فرديناند في استغلاله . زحف النصارى على رنده واستيلاؤهم عليها . هزيمتهم أمام حصن ماكلين . الحرب الأهلية في غرناطة . اطلاق سراح أبي عبد الله وتعهد بالطاعة لملك قشتالة . ظهور في الانحاء الشرقية . مهاجمة النصارى للوشة واستيلاؤهم عليها . سقوط الحصون الاسلامية في يد النصارى . الانفاط التي استعملت في حرب غرناطة . أصلها وتطورها ، المدافع البدائية . أثر هذا السلاح في هزيمة المسلمين . الحرب الأهلية بين أبي عبد الله وعمه الزغل . امداد فرديناند لأبي عبد الله . مسير فرديناند الى بلش مالقة . اسراع الزغل الى انجاده . سقوطها في يد لنصارى . تأييد غرناطة لأبي عبد الله . ارتداد الزغل الى وادى آش . انقسام مملكة غرناطة .

وهكذا كانت شمس الأندلس تؤذن بالغروب ، وكانت تغرب في الواقع بخطى وثيدة ، ولكن مؤكدة .

ولم يك ثمة شك في أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، التي يسودها الخلاف والتفرق ، وتعصف بوحدها ومنعتها الحروب الداخلية ، كانت تنتحر ببطىء ، وأن هذه الأمة الأندلسية ، التي أخذت تنكمش في مدنها وتغورها القليلة ، كانت تنظر إلى المستقبل بعين التوجس والجزع ، وأن هذه الحياة الباهرة الساطعة التي كانت تحياها بين آن وآخر ، كلما تربع على العرش أمير قوى رفيع الجلال ، لم تكن إلا سويعات النعماء الأخيرة في حياة أمة عظيمة تالدة . وقد كان هذا الشعور يخالج رجالات الأندلس منذ بعيد ، حتى قبل أن تتفاقم الأمور ، وتغدو مملكة غرناطة العوبة في يد بلاط قشتالة ، وكانوا يستشفون من وراء ذلك خطر الفناء المحقق . وكان ابن الخطيب وزير الأندلس ومفكرها الكبير حسبا قدمنا ، أشدهم شعوراً بذلك الخطر الداهم ، وقد استشعر به قبل وقوعه بأكثر من قرن ، فعكف يهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويستنفرهم إلى الجهاد . ومما يخاطبهم به قوله : « أيها الناس رحمكم الله ، إخوانكم المسلمون قد دهم العدو ساحتهم ، ورام الكفر استباحتهم ، وزحفت حراب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعه إليهم ، وأيديكم بغزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضع فلتبصروه . الجهاد الجهاد ، فقد تحين ، الجار الجار ، قد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه السلام ، الله الله في المساجد العمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، فقد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميع العوائد . . . أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت . . . » (١) .

ويشير ابن الخطيب في إحدى رسائله إلى السلطان أبي سالم المريني ملك المغرب

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٦٤ ؛ وابن الخطيب يتوجه هنا بنداثة إلى أهل العدو وملوكهم

إلى ماتعانيه الأندلس من المحن والأخطار ، وبنوه باتحاد الملوك النصارى على محاربتها والقضاء عليها فى قوله : « فاعلموا أننا فى هذه الأيام ندافع من العدو تياراً ، ونكابر ببحراً زحاراً ، ونتوقع إلا أن وقى الله تعالى خطوباً كباراً ، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصاراً ، ولنلجأ إليه اضطراراً ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعداداً به واستظهاراً » (١).

ثم يقول فى رسالة أخرى مشيراً إلى ما يهدد الأندلس من جراء ذلك من خطر الفناء المحقق : « ولاشك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، أو أعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه » (٢).

ويبدى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، تشاؤمه وتوجسه ، من مصير الأندلس فى أكثر من موطن ، وهو الخبير بتقلبات الدول ومصايرها ، وكان قد زار غرناطة وأقام بها مدى حين ، ودرس أحوالها وشئونها (٣).

وقد رأينا فيما تقدم كيف كانت مملكة غرناطة ، جرياً منها على السياسة الأندلسية الماثورة منذ أيام المرابطين والموحدين ، تتجه كلما لاح لها شبح الخطر الداهم من عدوها القوى ، ببصرها إلى جارتها المسلمة القوية فيما وراء البحر ، أعنى دولة بنى مرين . وكانت صولة الإسلام فى الضفة الأخرى من البحر ، تروع اسبانيا النصرانية ، وترد عدوانها عن الأندلس بين آونة وأخرى . ولكن صريخ بنى الأحمر إلى ملوك العدو ، لم يكن دائماً بعيداً عن التوجس والريب ، ولم يستجب بنو مرين دائماً إلى صريخ الأندلس المحتضرة ، وكانت لهم أحياناً مطامع ومشاريع فى الأندلس وقواعدها الجنوبية ، تزهد فى غوثهم ونصرتهم . وكانت اسبانيا النصرانية كلما آنست تصرم العلائق بين الدولتين الشقيقتين ، انقضت على الأندلس فاقتطعت منها أرضاً جديدة . ولما أشرفت دولة بنى مرين على الانهيار ، وشغلت عدوة المغرب بالفتن الداخلية ، نجا أمل الأمة الأندلسية ، فى تلقى الغوث والإمداد من تلك الناحية ، واضطرت مملكة غرناطة أن تعتمد فى الذود عن حياتها ، على قواها ومواردها المحدودة ،

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٥٧١ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٦ .

(٣) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٨ ، وج ٧ ص ٣٧٩ .

وعلى ما يمكن أن تفيده من تطور الحوادث في اسبانيا النصرانية . ولم تأت فاتحة النصف الأخير من القرن التاسع الهجرى ، حتى غدت غرناطة وقد انتزعت معظم أطرافها من الغرب والجنوب ، وأحاطت بها قوى النصرانية من كل صوب ، تدبر عدتها الأخيرة للقضاء عليها .

— ٢ —

لما توفى السلطان سعد بن اسماعيل النصرى فى ربيع سنة ٨٧١هـ (١٤٦٦م) خلفه فى الملك ولده الأكبر على أبو الحسن الملقب بالغالب بالله (١). ولكنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه ، وعلى رأسهم أخوه السيد أبو عبد الله محمد المعروف « بالزغل » . وكان أبو الحسن أميراً وافر الشجاعة والعزم ، يعشق الحرب والجهاد ، وكانت له أيام أبيه غزوات موفقة فى أرض النصارى . وما كاد أبو الحسن يستقر فى عرشه ، حتى أبدى همّة فائقة فى تحصين المملكة ، وتنظيم شئونها ، وبث فيها روحاً جديدة من القوة والطمأنينة ، واستطاع أن يسترده عدة من الحصون والقواعد التى استولى عليها النصارى . وفى أوائل حكمه خرج عليه أخوه أبو عبد الله « الزغل » (٢) والى مالقة ، وكان يضارعه فى الشجاعة والجرأة وحب النضال . ولجأ الزغل إلى عون ملك قشتالة هنرى الرابع يستنصره على أخيه ، ولقيه فى محله فى ظاهر أرشودونة ، سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) فوعده بالعون والتأييد . وبادر السلطان أبو الحسن من جانبه بالإغارة على أراضى قشتالة (١٤٧٠م) . ثم عاد فى العام التالى فغزاها مرة أخرى ، وانتزع من النصارى بعض المواقع التى استولوا عليها . وشغل أبو الحسن فى الأعوام الثلاثة التالية بمحاربة أخيه أبى عبد الله الزغل ، التائر عليه . وكان النضال سجالاً بينهما . وشغل أبو الحسن بذلك عن غزو أرض النصارى ، وشغل القشتاليون أنفسهم بما نشب بينهم من الخلاف الداخلى ، وذلك حتى وفاة ملكهم هنرى الرابع فى سنة ١٤٧٤ .

ولما تفاقم النزاع بين أبى الحسن وأخيه أبى عبد الله ، ولم يحسم بينهما السيف ،

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٦٠٧ .

(٢) الزغل وزغل أعنى الشجاع أو الباسل والمصدر « زغلة » . وسرى فيما بعد كيف ينطبق

هذا المعنى على سيرة الزغل وصفاته أم لا انطبق . راجع دوزى Supp. aux Dict. arabes. V. II. p. 594

رأى الفريقان أن يعمدا إلى الصلح والتهادن ، فعقدت الهدنة بين الأخوين على أن تحترم الحالة القائمة ، ويبقى أبو عبدالله على استقلاله بمالقة وأحوازها ، وعقدت في نفس الوقت هدنة مؤقتة بين المسلمين والنصارى .

وفي هذه الآونة التي أخذت فيها عوامل التفرق تمزق أوصال المملكة الإسلامية الصغيرة ، كانت اسبانيا النصرانية تخطو خطواتها الأخيرة نحو الإتحاد النهائي ، وذلك باقتران فرديناند ولد يوحنا الثاني ملك أراجون بايزابيلا أخت هنرى الرابع ملك قشتالة ، ثم إعلانهما ملكين لقشتالة في سنة ١٤٧٩ ، وتبوى فرديناند بعد ذلك عرش أراجون حسبما فصلنا . وهكذا اتحدت المملكتان الاسبانيتان القديمتان بعد أحقاب طويلة من الخلاف والحروب الأهلية ، وأصبحت اسبانيا النصرانية قوة عظيمة موحدة ، وكان تفرقها من قبل يتيح للأندلس فترات من السلام والأمن ، ولكن الأندلس وقد صارت إلى ما صارت إليه من الإنحلال والضعف ، أضحت تواجه أعظم قوة واجهتها في تاريخها .

وحاول السلطان أبو الحسن أن يجدد الهدنة مع القشتاليين ليتفرغ لأعمال التحصين والإنشاء ، فأرسل في سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م) إلى ملك قشتالة يطلب تجديدها . وكان فرديناند وإيزابيلا يقيمان في إشبيلية فوافقا على ما طلبه أبو الحسن ، ولكن بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتهم ، وأن تؤدى إلى قشتالة نفس الجزية التي كان يؤديها أبوه . وأرسل بالفعل سفيراً إلى السلطان أبي الحسن يطالبه بعهد الطاعة وتأدية الجزية ، فرفض أبو الحسن طلب الملكين النصرانيين بإباء ، وأجاب باعلان الحرب على قشتالة ، وزحف توالاً على قلعة « الصخرة » وهي قاعدة حصينة تقع على حدود الأندلس الغربية في غربي مدينة زنده ، واستولى عليها عنوة ، وقتل حاميتها ، وسبي سكانها (ديسمبر سنة ١٤٨١ م) . وبالرغم مما أحرزه أبو الحسن من الظفر في تلك المعركة الأولى ، فقد اعتبر بعض العقلاء تصرفه اعتداءً لا مبرر له ، وتوجسوا شراً من عواقبه . ويروى أن فقيهاً شيخاً صاح غداة هذا الانتصار ، وهو يغادر هو الاجتماع في قصر الحمراء ، ويل لنا فلنفس تسقط أنقاض الصخرة فوق رؤوسنا ، ولم يبق للدولة الاسلام في اسبانيا سوى أيام معدودات (١) . على أن هذا الظفر المؤقت

كان له أعظم الأثر في إحياء قوى الشعب المعنوية ، ولاح لاسبانيا النصرانية يومئذ أن الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة من القوة (١) . ولكن هذا البعث الحلب لم يطل أمده . ذلك لأن أبا الحسن لم يلبث أن ركن الدعة ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه ، وبذر حوله بذور السخط والغضب ، بما ارتكبه في حق الأكابر والقادة من صنوف العسف والشدة ، وما أساء إلى شئون الدولة والرعية ، وما أغرق فيه من ضروب اللهو والعبث . وهكذا عادت عوامل الخلاف والتفرقة الحالدة ، تعمل عملها الهادم ، وتحدث آثارها الخطرة .

* * *

وكان أبو الحسن قد اقترن بالأميرة عائشة ابنة عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر وهي التي تعرفها الرواية الإسلامية باسم «عائشة الحرة» . ويمثل اسم هذه الأميرة في تاريخ المأساة الأندلسية ، كما تمثل فيها أسماء أخرى أكثر ذيوغاً وذكراً ، وفي مقدمتها اسم ولدها المنكود أبي عبد الله ، ولكن لعل اسماً بينها لا يثير من الإعجاب والاحترام ، ومن الأسى والشجن ، قدر ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة ، التي تذكرنا خلالها البديعة ، ومواقفها الباهرة ، وشجاعته المثلث ابان الخطوب المدهمة ، بما نقرأه في أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف .

والواقع أن حياة عائشة الحرة ، تبدو لنا خلال الحوادث والخطوب ، كأنها صفحة من القصص المشجى ، أكثر مما تبدو كصفحة من التاريخ الحق ، وهذا

(١) راجع كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » (ص ٣) ، وهو الرواية الإسلامية الوحيدة التي انتهت إلينا عن حوادث سقوط غرناطة . وسيكون منذ الآن مرجعنا في كثير من حوادث هذه الفترة . ويقع هذا الكتاب في ست وخمسين صفحة فقط ، وقد وضعه مؤلف مجهول لم يذكر اسمه ، ولكنه يذكر في نهايته أنه كتبه في جمادى الآخرة سنة ٩٤٧ هـ أعني بعد سقوط غرناطة بخمسين عاما فروايته معاصرة تقريباً . ويدل وصفه للحوادث على أنه ربما شهدتها فتي ، أو لعله تلتق تفاصيلها من أفواه الشيوخ الذين شاهدوها . والظاهر أن المؤلف من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مسلمين في سرائرهم ، وأنه خشى أن يبوح بإسمه لأنه يندب حظ الإسلام ، ويندد بغدر النصارى وفضائعهم . وقد نشر المستشرق الألماني م . ي . ميلر هذا الكتاب عن النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة بالاسكوريال (جوتنجن سنة ١٨٦٣) مقرونة بترجمة المامية تحت عنوان « أيام غرناطة الأخيرة » Die letzten Zeiten von Granada . ونقل القرى في فتح الطيب معظم ماورد فيه عن حوادث سقوط الأندلس .

اللون القصصى لا يرجع فقط أى كونها أميرة أو امرأة ، تشترك فى تدبير الملك ، وتدبير الشؤون والحوادث ، ولكن يرجع بالأخص إلى شخصيتها القوية . وإلى سمو روحها ورفيع مثلها ، وإلى جناها الجرىء يواجه كل خطر ، ويسمو فوق كل خطب ومصاب .

كانت عائشة الحرة ملكة غرناطة فى ظل ملك يحضر ، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض . وقد رزقت من زوجها الأمير أبى الحسن بولدين هما : أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف . وكانت روح العزم والتفائل التى سرت فى بداية هذا العهد إلى غرناطة ، تدكى بقية من الأمل فى إنقاذ هذا الملك التالذ . وكانت عائشة ترى من الطبيعى أن يوول الملك إلى ولدها ، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع . ذلك أن الأمير أبى الحسن ركن فى أواخر أيامه إلى حياة الدعة كما أسلفنا ، واسترسل فى أهوائه وملاذه ، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن ، تعرفها الرواية الإسلامية باسم « ثريا » الرومية . وتقول الرواية الإسبانية إن ثريا هذه واسمها النصرانى إيزابيلا ، وتعرفها الرواية أيضاً باسم « زريدة » ، كانت ابنة عظيم من عظماء اسبانيا وهو القائد « سانشو كمنيس دى سوليس » وانها أخذت أسيرة فى بعض المعارك ، وهى صبية فتية ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فاعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح ، فهام بها الأمير أبو الحسن ، ولم يلبث أن تزوجها ، واصطفها على زوجه الأميرة عائشة ، التى عرفت عندئذ « بالحرّة » تمييزاً لها من الجارية الرومية ، أو إشادة بعافها وطهرها (١) .

ولم يكن اقتران الأمير بفتاة نصرانية بدعة ، ولكنه تقليد قديم فى قصور الأندلس . وقد ولد بعض خلفاء الأندلس وأمراءها العظام من أمهات من النصرانى ، مثل عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد ، وكذلك ولد بعض الأمراء من بنى نصر

(١) راجع Irving: Conquest of Granada حيث يورد أقوال الرواية الإسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع) . ويقول كوندى إن ثريا كانت ابنة حاكم مرطوس النصرانى Condé; ibid (III. p. 342) ولكن الرواية العربية تكفى بالقول بأن ثريا كانت جارية رومية (المقرئ فى نفع الطيب ج ٢ ص ٦٠٨ ، وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ص ٦) ويتفق پرسكوت مع الرواية العربية فيقول إن ثريا كانت جارية يونانية ، أى رومية . راجع History of Ferdinand and Isabella p.219

ملوك غرناطة من أمهات من النصارى مثل السلطان محمد بن اسماعيل النصرى (١) . ولم يكن الزواج المختلط نادراً في المجتمع الأندلسي الرفيع ، ولا سيما منذ أيام الطوائف ، وكان كثير من الأكابر والأشراف يتزوجون بفتيات من النصارى سواء كن من السبايا أم من الأحرار . ولم يكن العكس نادراً أيضاً ، فنذ توالى سقوط القواعد والثغور الأندلسية في يد النصارى ، كثر الزواج بين المدجنين وبين النصارى ، وفقد المدجنون بمضى الزمن دينهم ولغتهم ، واندمجوا في المجتمع النصراني . ونرى بين زعماء الطوائف بعض أمراء يرجعون إلى أصل نصراني ، مثل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك بلنسية ومرسية ، وقد كان يتكلم القشتالية ، ويلبس الثياب القشتالية ، ويتقلد السلاح القشتالي ، وكان معظم ضباطه وجنده من النصارى ، وكان الإسبان يعرفونه بالملك « دون لوبي » (٢) .

ولم يكن ثمة ريب في خطورة الآثار الإجتماعية التي يحدثها مثل هذا الامتزاج الوثيق ، وقد كانت فيما بعد من أهم العوامل التي أدت إلى انحلال المجتمع الإسلامي ، وانحلال عصبية الدولة الإسلامية . كذلك لم يكن ثمة ريب في أن هذه الآثار الهدامة كانت أعمق وقعباً وأشد خطراً وقت الإنحلال العام .

وكان الأمير أبو الحسن قد شاخ يومئذ وأثقلته السنون ، وغدا أداة سهلة في يد زوجه الفتية الحسناء . وكانت ثريا فضلاً عن حسنها الرائع فتاة كثيرة الدهاء والأطباع ، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية في قصر غرناطة ، واستئثارها بالسلطان والنفوذ في هذه الظروف العصبية ، التي تجوزها المملكة الإسلامية ، عاملاً جديداً في إذكاء عوامل الحصومة والتنافس الخطرة . وكانت ثريا في الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ . ذلك أنها أنجبت من الأمير أبي الحسن كخصيمتها عائشة ولدين ، كانت ترجو أن يكون الملك لأكبرهما وهو السيد يحيى . وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة ، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك ؛ وكان أكبرهما محمد ولقبه أبو عبدالله ولي العهد المرشح للعرش ، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل

(١) الاحاطة ج ١ ص ٣٥٣ .

(٢) راجع الاحاطة ج ٢ ص ٨٢ ؛ وكذلك : Lea: History of the Inquisition in Spain

بيت الملك ، على عقب الجارية النصرانية . ولكن ثريا لم تياس ولم تفتر همتها ، فما زالت بأبي الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها ، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية ، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالهم ، وزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش . أمنع أبراج الحمراء . وشدد في الحجر عليهم ، ووعملوا بمنتهى الشدة والقسوة .

فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم ، وكان نذير الاضطراب والخلاف في المجتمع الغرناطي . وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين ، فريق يؤيد الأميرة الشرعية وولديها ، وفريق يؤيد السلطان وحظيته . واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين ، واضطربت الأهواء والشهوات والأحقاد ، واشتد السخط على أبي الحسن وحظيته ، التي أضحت سيدة غرناطة الحقيقية ، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ . وذهبت ثريا في طغيانها إلى أبعد حد فحرضت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبي عبدالله عثرة آمالها . وكان المنجمون حسبها تقول الرواية قد تنبأوا له عند مولده بأنه سيرقى العرش ، ولكن سيكون آخر من يرقاه من ملوك المسلمين ، وسوف تسقط غرناطة على يديه ، وكانت ثريا ترجف لهذه النبوءة وتحاول أن تدلل على بطلانها بصورة عملية ؛ ويقال إن أبا الحسن أذعن لمشيئة ثريا وتحريضها فقرر أن يبطل بولده السجين ، وأن يغالب بازهاقه طوابع النجوم وأقوال المنجمين .

وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة ، فلم تستسلم إلى قدرها الجائر ، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها ، وفي مقدمتهم بنو سراج أقوى أسر غرناطة ، وأخذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة ؛ ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبني سراج هذا الموقف قط . ويقال إنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم في إحدى أبهاء الحمراء . ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبي الحسن قررت أن تبادر بالعمل ، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة . وفي ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة ٥٨٨٧ (١٤٨٢م) استطاعت الأميرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين (١) . وتقدم إلينا الرواية عن هذا الفرار

(١) أخبار العصر ص ١٢ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٦٠٩ .

صوراً شائقة فتقول إن بعض الخدم المخلصين ، كان ينتظر مع الجياد على مقربة من الحمراء على ضفة النهر مما يلي برج قمارش ، وإن الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق في جوف الليل (١) ، وأنها هبطت بعد أن أدلت ولديها ، ثم اختفى الجميع تحت جناح الظلام .

وهكذا استطاعت هذه الأميرة الباسلة أن تفر من معتقلها في إقدام وجرأة يخلقان بأبطال الرجال ؛ واختفى الفارون حيناً حتى قويت دعوتهم وانضم إليهم كثير من أهل غرناطة ؛ وكان اسم عائشة ورفيع خلالها ، وقصة فرارها الجريء ، تثير أيماناً عطف وإعجاب . وظهر ولدها الأمير الفتي محمد أبو عبدالله في وادي آش حيث مجمع عصبته وأنصاره ، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها بعيداً عن غرناطة ، يدافع النصارى عن أسوار لوشه ، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة .

وكان ملك قشتالة يرقب الحوادث في مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام . فلما اضطرت نار الحرب الأهلية بين المسلمين ، ولاحت الفرصة للغزو سانحة ، قرر بدء الحرب ضد غرناطة . وكان يضطرم سخطاً لاستيلاء المسلمين على قلعة الصخرة بالرغم من قيام الهدنة ، وعجزه عن استرداد هذه القاعدة الهامة ، فسير حملة قوية إلى الأندلس سارت منحرفة من جهة الغرب . ورأى القواد القشتاليون أن يبدأوا بمهاجمة ألحامة (الحمة) التي تقع في قلب الأندلس جنوب غربي غرناطة ، وذلك لما بلغهم من ضعف وسائل الدفاع عنها ، ولأن الاستيلاء عليها يمكنهم من تهديد غرناطة ومالقة معاً . وكانت ألحامة مدينة غنية ولها شهرة قديمة بمحاماتها الشهيرة التي كانت مجتمع ملوك غرناطة وأمراءها . ونجحت الحطة واستطاع النصارى مفاجأة ألحامة والاستيلاء على قلعتها تحت جناح الظلام ، ثم استولوا على المدينة بالرغم من مقاومة أهلها الباسلة ، وأمعنوا في المسلمين قتلاً وأسراً وسيياً (المحرم سنة ٨٨٧ — فبراير سنة ١٤٨٢) . وهرع السلطان أبو الحسن في قواته لإنقاذ ألحامة واستردادها ، وحاصرها بشدة ، ولكنه لم يستطع اقتحامها ، ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرتها حيناً

(١) راجع : Prescott: ibid. p. 219

علم أن ملك قشتالة يتقدم لإنجادهما في جيش قوى ضخيم (١) . ولم تمض أشهر قلائل حتى زحف ملك قشتالة على مدينة لوشه الواقعة على نهر شنيل في شمال ألحامة وعلى مقربة منها وحاصرها ، ودافعت عنها حاميتها أروع دفاع بقيادة قائدها الأمير الشيخ ، على العطار ، وكان رغم شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان غرناطة في ذلك العصر . وسار أبو الحسن في قواته مسرعاً لإنجاد لوشه ، وانتهى الأمر بأن رُد النصارى بخسارة فادحة في الرجال والعدد (جمادى الأولى ٨٨٧ — يولييه ١٤٨٢) . وكان مما استولى عليه المسلمون من النصارى ، بعض « الألقاط » التي تستعمل لحصار المدن ، والتي سنتحدث عنها فيما بعد (٢) .

وما كاد أبو الحسن يعود إلى عاصمة ملكه حتى تجهم الجو من حوله . وكانت سياسته الداخلية قد أثارت حوله كثيراً من السخط ، بالرغم مما أحرز من نجاح في مقاومة النصارى ، وكان معظم الشعب الغرناطي يعطف على الملكة الشرعية وولديها . وسرعان ما نشبت الثورة في غرناطة ، وغلبت دعوة الأمير الفتي أبي عبدالله ، ولم يستطع أبو الحسن وصحبه مواجهة العاصفة ؛ ففر الملك الشيخ إلى مالقة ، وكان بها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد ، المعروف بالزغل أي الشجاع الباسل ، يدفع عنها جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها . وجلس أبو عبدالله محمد (٣) مكان أبيه على عرش غرناطة (أواخر سنة ٨٨٧ هـ) . وأطاعته غرناطة ووادي آش وأعمالها . وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه ، وكان أبو عبد الله يومئذ فتي في نحو الخامسة والعشرين .

* * *

وكان فرديناند الخامس عقب هزيمته أمام لوشه ، قد سيرجنده إلى مالقة لافتتاحها . وكانت مالقة أعظم الثغور الباقية بيد المسلمين . وكان النصارى يتوقون للاستيلاء عليها لإتمام تطويق الأندلس من الجنوب ، ولكن المسلمين كانوا على أتم أهبة للدفاع عن هذا الثغر المنيع . واشتبك المسلمون والنصارى في عدة مواقع دموية

(١) أخبار العصر ص ٦ و ٩ ؛ وكذلك : Prescott: p. 206-210

(٢) أخبار العصر ص ١١ .

(٣) يعرف السلطان أبو عبد الله في الرواية القشتالية والافرنجية بوجه عام باسم Boabdil محرراً

عن « أبي عبد الله » .

فيما بين مالقة وبلش (Velez) ورُد فيها النصارى بخسارة فادحة . وانتهى الأمر بأن هزم النصارى في ظاهر مالقة هزيمة ساحقة ، وقتل وأسر منهم عدة آلاف بينهم كثير من الزعماء والأكابر (صفر ٨٨٨ — مارس ١٤٨٣) . وتعرف هذه الموقعة « بالشرقية » لوقوعها في المنطقة المسماة بذلك في شرقي مالقة . وكان منظم هذا الدفاع الباهر الأمير أبو عبد الله « الزغل » . وكان لانتصار المسلمين أعظم وقع في جنبات الأندلس ، فانتعشت الآمال وسرت الحماسة في كل مكان ، وهبت على غرناطة ريح جديدة من الإستبشار والنصر ، واعتزم ملكها الفتي أن يحدو حذو عمه الباسل في الجهاد والغزو ، وأن ينتهز فرصة اضطراب النصارى عقب الهزيمة . فخرج في قواته في شهر ربيع الأول سنة ٨٨٨ (ابريل سنة ١٤٨٣) متجهاً نحو قرطبة ، شمال غربي غرناطة ، واجتاح في طريقه عدداً من الحصون والضياع ، وهزم النصارى في عدة معارك محلية . ثم ارتد مثقلاً بالغنائم في طريق العودة ، فأدركه النصارى في ظاهر قلعة اللسانة (Lucena) وكان يزعم حصارها . ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف نهر شنيل ، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم ، وكان بين الأسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه ، عرفه الجند النصارى بين الأسرى أو عرفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه ، فأخذوه إلى قائدهم الكونت كابرا (قبره) فاستقبله بجفاوة وأدب ، وأنزله باحدى الحصون الغربية تحت رقابة حرس قوى . وأخطر في الحال ملكي قشتالة بالنبأ السعيد ، وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم ، وقد مزقهم الهزيمة وفتت في عزائمهم ، فارتاعت العاصمة لهذه النكبة واضطرب الشعب ، وساد الوجوم قصر الحمراء ، وسرى الحزن والأسى إلى حرم الأمير وقرابته ، ولم يحتفظ فيهم بهدوئه وسكينته سوى أمه عائشة . وتذكر لنا الرواية أن عائشة حينما بكت أمامها مريمه زوج ولدها الفتية الحسناء وابنة الأمير على العطار بطل لوشه ، عنفتها قائلة : « إن الدموع لا تليق بابنة مجاهد ولا بزواج ملك ، وإن الخطر لأشد على ملك يمتنع يقصره منه عليه حين يأوى إلى خيمته ، وإنه لو اجب على زوجك أن يشتري سلام عرشه بمخاطر الميدان » (١) .

(١) وردت معظم هذه الأقوال والروايات الشجيرة التي نشير إليها من آن لآخر خلال حوادث سقوط غرناطة، في الرواية الاسبانية المعاصرة التي دونها القس Antonio Agapida والتي تمحظ حتى =

واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبي الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش مكان ولده الأسير . ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الإعياء والمرض وفقد بصره ، ولم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلاً ، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبي عبدالله « الزغل » حاكم مالقة ، وارتد إلى المنكب فأقام بها حيناً حتى توفي (٥٨٩٠ هـ - ١٤٨٥ م) . وجلس « الزغل » على العرش يدبر شؤون المملكة ، وينظم الدفاع عن أطرافها . أما السلطان أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن فلبث يرسف في أسره عند النصارى . وأدرك ملك قشتالة في الحال ما للأمير الأسير من الأهمية ، وأخذ يدبر أفضل الوسائل للاستعانة به في تحقيق مآربه في مملكة غرناطة . وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش جهده لاقتداء ولده ، لا يباعث الحب له والشفقة عليه ، ولكن لكي يحصل في يده ويأمن شره ومنافته ، وعرض على فرديناند نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة ، وأن يطلق عدداً من أكابر النصارى المأسورين عنده ، فأبى فرديناند وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين . وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهوداً آخر لإنقاذ ولدها بموازرة الحزب الذي يناصره ، واقترحت على ملك قشتالة معاهدة خلاصتها أن يتولى أبو عبد الله الملك في طاعة ملك قشتالة ، وأن يؤدي له جزية سنوية ، وأن يطلق كل عام عدداً من أسرى النصارى ، وأن يدفع مقابل إطلاقه فدية كبيرة ، وأن يفرج في الحال عن أربعائة من أسرى النصارى يختارهم ملكهم ، وأن يقدم المعاونة العسكرية لملك قشتالة كلما طلبت إليه ، وأن يقدم ابنه الوحيد كفالة مع عدد من أبناء الأسر الكبيرة (١) . ومع أن عقد هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة في سبيل القضاء على مملكة غرناطة ، فان فرديناند رأى قبل عقدها أن يستغل أسر ملك غرناطة ، وأن يستعين به على تنفيذ برنامجه الحربي . وكان أبو عبدالله أميراً ضعيف العزم والإرادة ، قليل الحزم والخبرة ، ولم يكن يتمتع بشيء من تلك الخلال

== اليوم في مكتبة الاسكوريال . وقد اتخذ الكاتب الأمريكي واشنطون ايرفينج رواية القس أجايبدا أساساً لكتابه عن فتح غرناطة : A Chronicle of the Conquest of Granada وهو الذي نشير إليه في مواطن عديدة . وما نذكره من أقوال « الرواية » في هذه المواطن لا يدخل حتماً في حيز التاريخ وإنما يرجع في الغالب إلى أقوال الرواية المتناقلة وغير المحققة ، ومن ثم كان حرصنا على أن ننسب إليها نقله منها .

الباهرة التي امتاز بها أسلافه وأجداده العظام من بنى الأحمر . وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأى الأثمان والوسائل . وقد ألقى ملك قشتالة القوي في ذلك الأمير الضعيف الطموح ، أداة صالحة يوجهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه في غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى . وسير ملك قشتالة في نفس الوقت قواته في أنحاء مملكة غرناطة لكي تنتزع أثناء الاضطراب العام ، كل ما يمكن انتزاعه من القواعد والحصون الإسلامية . وزحف القشتاليون على مدينة رنדה في قاضية غربي الأندلس وهاجموها ، وضربوها بالأنفاط حتى هدمت أسوارها ، وكانت حاميها بقيادة حامد الثغري زعيم نحمارة ، ولم يستطع أهل رنדה أن يثبتوا طويلا لعدم استعدادها للدفاع ، ولبعدهم عن العاصمة ، ويأسهم من تلقي الأمداد السريعة ، فطلبوا الأمان ، وغادروا المدينة بأمعتهم ؛ واستولى القشتاليون على رنדה في جمادى الأولى سنة ٨٩٠هـ (ابريل سنة ١٤٨٥) . ثم استولوا بعد ذلك على سائر الأماكن والحصون الواقعة في تلك المنطقة ، وبذلك أصبحوا يهددون ثغر مالقة من الغرب (١) . وحاول القشتاليون بعد ذلك مهاجمة حصن مكليين على مقربة من غرناطة ، وكان به الأمير أبو عبدالله الزغل في قوة من الغرناطيين ليصلح أسواره ويتم تحصينه ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية رد فيها النصارى بنحائر فادحة ، وعاد الأمير وجنده إلى غرناطة فرحين مستبشرين (٢) .

ولكن كان من سوء الطالع أن نشبت في تلك الأثناء في غرناطة حرب أهلية جديدة لم تكن بعيدة عن وحي أبي عبدالله وحزبه ، وقام حى البيازين (ربض البيازين) وهو ضاحية غرناطة الشمالية بدعوته . وشغل ملك غرناطة (أبو عبدالله الزغل) باخماد الثورة عن مقاتلة النصارى . وفي نفس هذه الآونة العصيبة أطلق فرديناند سراح أبي عبدالله بعد أن ارتضى عقد المعاهدة التي عرضت عليه مع تعديل يسير في نصوصها ، وبعد لقاء تم بين الملكين في قرطبة أعلن فيه أبو عبدالله خضوعه وطاقته لملك قشتالة ، واتفق أن تكون الهدنة لعامين ، وأن تطبق في جميع الأنحاء التي تدين بالطاعة لأبي عبدالله . وظهر أبو عبدالله يبيث دعوته في الأنحاء الشرقية ،

(١) أخبار العصر من ١٥ .

(٢) أخبار العصر من ١٧ .

والحرب الأهلية قائمة في غرناطة وذلك في أوائل سنة ٥٨٩١ (١٤٨٦ م) وبدأت المفاوضات بينه وبين عمه أبي عبد الله الزغل (ملك غرناطة) في الصلح . ولكن حدث في أثناء ذلك أن هاجم النصارى مدينة لوشة للمرة الثانية وشددوا الحصار عليها وسلطوا على أسوارها العدد و« الأنفاط » . وكان يدافع عنها الأمير محمد بن علي مع نخبة من أنجاد الفرسان . ولكن بسالة المسلمين لم تغن شيئاً أمام القوة القاهرة ، وفتك الأنفاط والعدد الثقيلة ، فاضطروا إلى التسليم ، واستولى النصارى على لوشة في أواخر جمادى الأولى سنة ٥٨٩١ (مايو ١٤٨٦) واعتقلوا قائدها محمد بن علي واخوته . وكان موقف السلطان أبي عبد الله أثناء هذه الحوادث مريباً . وتقول الرواية الإسبانية إنه اشترك مع بعض قواته في الدفاع عن لوشة ، وإنه جرح أثناء ذلك (١) . ولكننا لم نعر على مايؤيد ذلك في الرواية الإسلامية . وكان أبو عبد الله يبذل جل جهده للدعوة إلى نفسه ، وإلى مقاومة عمه ونزعه عن العرش . وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه . ولم يكن خافياً أنه يستظل بمظاهرة النصارى وتأييدهم ، وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه .

ولم يغفل فرديناند تلك الفرصة الذهبية لانتزاع مايمكن انتزاعه من أراضي مملكة غرناطة . فبينما الحرب الأهلية تضطرم في العاصمة وحولها ، إذ سار النصارى إلى حصن البورة على مقربة من مالقة وحاصروه وضربوه « بالأنفاط » حتى اضطروا أهله إلى التسليم والخروج عنه ، ثم ساروا إلى حصن مكليين وهاجموه ونشبت بينهم وبين المدافعين عنه معركة عنيفة انتهت بتحطيم أسواره بفعل « الأنفاط » واستيلائهم عليه ، وخروج أهله عنه إلى غرناطة . ثم استولى النصارى بعد ذلك على حصن قلنبيرة بالأمان ، إذ رأى أهله منازل بغيرهم ففضلوا التسليم دون قتال ، واستولوا بعده على سلسلة أخرى من القلاع والحصون التي تحمي مشارف غرناطة ، وأصلحوها وشحنوها بالرجال والمؤن ، لتؤدي دورها فيما بعد من التضيق على العاصمة وتهديدها (٢) .

وهنا نقف قليلاً لتساءل عن حقيقة هذه « الأنفاط » التي توالى ذكرها

(١) راجع : Irving: ibid; Ch. XXXIV

(٢) أخبار العصر ص ٢٢ .

في سير هذه المعارك ، التي اضطرت بالأخص في لوشة وفي رندة وفي الحصون المجاورة ، والتي كانت فيما يبدو عمدة النصارى في التفوق على المسلمين ، في تحطيم هذه الحصون القوية . ولقد أشارت الرواية الإسلامية عن سقوط غرناطة ، وهي رواية صاحب « أخبار العصر » التي كتبها بعد وقوع هذه الأحداث بنحو نصف قرن فقط ، إلى تلك « الأنفاط » في عدة مواضع ثم وصفها لنا فيما يأتي :

« وكان له (أى لملك قشتالة) أنفاط يرمى بها صخور من نار ، فتصعد في الهواء ، وتنزل على الموضع ، وهي تشتعل ناراً ، فهلك كل من نزلت عليه وتحرقه ، فكان تلك من جملة ما كان يخذل في أهل المواضع التي كان ينزل بها » (١) .

ونحن نعرف أن مسلمى المشرق كانوا منذ أيام الحروب الصليبية ، يخذقون استعمال الرمي بالنار والأنفاط ، وأن هذه النار كانت ترمى من آلات قاذفة تعرف بالحراقات على حصون العدو ومعسكراته وسفنه في البحر ففتكت بها . وقد لعبت هذه النار دوراً هاماً في الحروب الصليبية ، وألفت فيها مصر سلاحاً منيعاً لرد عدوان الصليبيين وتمزيق حملاتهم . والظاهر أن هذا السلاح الذي استأثر به المسلمون مدى حين في المشرق ، قد عرفه مسلمو إفريقيا والأندلس منذ منتصف القرن السابع الهجرى ، واستعملوه في محاربة أعدائهم نصارى اسبانيا . ففي حصار لبلة (٦٥٥هـ - ١٢٥٧م) استعمل الموحدون للدفع جيوش الفونسو العاشر ملك قشتالة ، آلات تقذف حجارة ومواد ملتهبة بصحبها دوى كالرعد . وقد كان استعمال هذه النار أو الأنفاط الفتاكة يتطور بلا ريب مع العصور . ومنذ منتصف القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) نرى مسلمى الأندلس يستعملون لمقاتلة النصارى آلات تقذف اللهب والحجارة ، ويصحبها دوى مخيف (٢) . وظهرت براعة الأندلسيين في استعمال هذه الآلات في عدة مواقع . ففي حصار بياسه في سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) في عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل ، أطلق المسلمون على المدينة الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع ، واستعملت مثل هذه الآلات في موقعة وادى لكه (ريو سليثو) سنة ١٣٤٠م (٧٤٠هـ) وفي الدفاع عن الجزيرة سنة ١٣٤٢م (٧٤٢هـ)

(١) أخبار العصر ص ٢٢ .

(٢) راجع كتاب « مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام » ص ١٠٥ .

وذلك في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف . والظاهر من وصف هذه الآلات أنها كانت نوعاً من المدافع الساذجة التي تحشى بالحديد والحجارة وبعض المواد المتفجرة التي كانت فيما مضى عماد الحراقات أو الأنفاط الشرقية . وليس بعيداً أن يكون مسلمو الأندلس قد وفقوا في هذا العصر أيضاً إلى العثور على سر البارود . قبل أن يقف على سره القس الألماني برتولد شفارتز في منتصف القرن الرابع عشر . ومن المرجح أن النصرى الإسبان قد نقلوا سر الأنفاط عن مسلمي الأندلس ، وحذقوا في استعمالها مع الزمن . ولما غلب الضعف على مملكة غرناطة تضاءلت أهبتها الدفاعية ونقصت مواردها في السلاح والذخيرة ، خصوصاً بعد أن فقدت معظم قواعدها الصناعية . بيد أنه من المحقق أن المسلمين كانوا يستعملون الأنفاط أيضاً في محاربة أعدائهم وإن يك ذلك بنسبة صغيرة تتفق مع ضآلة مواردهم . أما القشتاليون فقد كانت لديهم « الأنفاط » بكثرة ، وكانت السلاح المفضل في مهاجمة القواعد والحصون الإسلامية . وهناك أيضاً ما يدل على أن هذه الأنفاط التي كان يستعملها القشتاليون لم تكن سوى المدفع في صورته البدائية ، فالرواية الغربية تحدثنا عن اهتمام ملك قشتالة بصنع « المدافع » لمحاربة المسلمين ، وتقول لنا إن هذه المدافع كانت تصنع في مدينة وشقه ، وإن كميات عظيمة من القنابل الخاصة بها كانت تصنع في سيرا قسطنطينية (١) . وتحدثنا الرواية الإسلامية المعاصرة عن « البارود » وتقول لنا إن النصرى حينما نشبت الثورة في ربض البيازين أمدوا فريقاً من الثوار « بالرجال والأنفاط والبارود » (٢) إذكاء منهم للفتنة بين المسلمين . وهكذا نرى أن الأنفاط التي تنوّه الرواية الإسلامية بفتكها بحصون المسلمين وصفوفهم في معارك غرناطة ، إنما هي المدافع بذاتها ، وأن تفوق القشتاليين في استعمال هذا السلاح ، كان له أعظم الأثر في التعجيل بانخضاع مملكة غرناطة والقضاء عليها .

ولنعد إلى قصة الحرب الأهلية في غرناطة ، فقد ثار أهل البيازين كما قدمنا بتحريض من أبي عبدالله وأمه الأميرة عائشة ، والتف معظم الشعب الغرناطي حول

(١) Prescott: ibid p. 223

(٢) راجع أخبار العصر ص ٢٤ .

أميره أبي عبدالله الزغل ، واستمرت المعارك سجلاً بين الفريقين مدى أشهر . وفي شوال سنة ٨٩١هـ (أكتوبر ١٤٨٦) عاد أبو عبد الله محمد من الأنحاء الشرقية ، وظهر فجأة في ربض البيازين ، واجتمع حوله أنصاره من الثوار ، وأمدّه فرديناند حليفه بالرجال والعدد والذخائر والمؤن ومنها الأنفاط كما قدمنا ، فزادت الفتنة اضطراباً . وشدد أبو عبدالله الزغل الضغط على أهل البيازين ، وبينما هو على وشك تمزيقهم وإبادتهم ، إذ بلغه أن ملك قشتالة قد سير قواته إلى مدينة بلش مالقة Velez ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٨٩٢هـ (مارس ١٤٨٧) (١) . وكان طبعاً أن ينتهز فرديناند الخامس فرصة اشتغال المسلمين بفتنتهم القاضية . وكانت بلش حصن مالقة ، وسقوطها يعرض مالقة لأشد الأخطار . وأدرك مولاى الزغل في الحال أهمية بلش فهرع إليها في بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبي عبدالله وأهل البيازين . ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته ، واستبسال أهل بلش في الدفاع عن مدينتهم لم تغن شيئاً ، وسقطت بلش في يد النصارى في جمادى الأولى سنة ٨٩٢هـ (أبريل سنة ١٤٨٧) وعاد الزغل بجنده ميمماً صوب غرناطة . ولكنه علم أثناء مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبي عبد الله ، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه (٥ جمادى الأولى) . فأيقن عبث المحاولة وارتد بصحبه إلى وادى آش ، وامتنع فيها بقواته ، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر : غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي الحسن ، ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه الأمير محمد بن سعد (أبو عبدالله الزغل) . وتحقق بذلك ما كان يبتغيه ملك قشتالة ، من تمزيق البقية الباقية من دولة الإسلام بالأندلس ، تمهيداً للقضاء عليها .

(١) أخبار العصر من ٢٢ — ٢٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٢ .

الفصل الثاني

بداية النهاية

ابو عبد الله محمد يرقى العرش للمرة الثانية . تمزق المملكة الاسلامية . خطط ملك قشتالة للقضاء عليها . زحف النصارى على مالقة وحصارها . سعى الزغل الى انقاذها . استغاثته بملوك الاسلام . بسالة المسلمين في الدفاع عنها . شدة الحصار وأهواله . تسليمها للنصارى . نكث فرديناند بوعوده . فتك النصارى بأهلها . استغاثة الأندلس بمصر . تتبع مصر لحوادث الأندلس . صدى محنة الأندلس في المشرق . رواية عن خطة مصر وتركيا لانقاذ الأندلس . سفارة الأندلس الى مصر . رواية ابن اياس عنها . مصر تلجأ الى الوسائل الدبلوماسية . سفارة مصر الى البابا وملك نابل وملكى اسبانيا . رد فرديناند وسفارته الى ملك مصر . أثر سقوط مالقة . استيلاء فرديناند على المنكب . تسليم المريه للنصارى وشروط التسليم . زحف فرديناند على شرقي الأندلس . مسيره الى مدينة بسطة . بسالة المسلمين في الدفاع عنها . حصارها وتسليمها . ياس مولاي الزغل وخضوعه لفرديناند . دخول النصارى وادى آش . نزول الزغل عن حقوقه وجوازه الى المغرب . رواية عن سلوك الزغل .

تبوأ أبو عبد الله محمد بن السلطان على أبي الحسن عرش غرناطة للمرة الثانية ، عقب عودة من الأسر بنحو عام ، ولكنه لم يكن يحكم تلك المرة سوى مملكة صغيرة ، وكان المفروض فوق ذلك أنه يحكمها باسم ملك قشتالة وتحت حمايته . وكانت الخطوب والفتن التي توالى على مملكة غرناطة قد مزقتها ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى بضعة مدن وقواعد متناثرة ، مختلفة الرأي والكلمة ، ينضوى بعضها تحت لوائه وتشمل الأندلس الشمالية الغربية ، وينضوى البعض الآخر تحت لواء عمه محمد بن سعد (الزغل) وتشمل الأندلس الشرقية والجنوبية . وكان واضحاً أن مصير المملكة الإسلامية أصبح يهتز في يد القدر ، بعد أن نفذت جيوش النصرانية إلى قلبها ، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية ، مثل الحامة ولوشة وبلش وغيرها . وكان ملك قشتالة يحرص على المضي في تحقيق خطته لسحق البقية الباقية من دولة الإسلام في الأندلس قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة ، فيبعث إليها روحاً جديدة من العزم والمقاومة . وكان من الطبيعي أن يؤثر البدء بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التي

يسيطر عليها مولاي الزغل، لأن الزغل لم يكن يدين بطاعته ، وكان يبدى في مقاومته عزماً لا يلين ولا يخبو ، ولأنه من جهة أخرى كان يرتبط بأمر غرناطة بصلح يمتد إلى عامين ، وقد أراد أن يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء ، وأخيراً لأنه كان يريد أن يعزل غرناطة وأن يطوقها من كل صوب ، قبل أن يسدد إليها الضربة الأخيرة .

وقد رأينا كيف سقطت قاعدة بلش حصن مالقة من الشرق في يد النصارى ، بعد دفاع عنيف ، في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ (مايو ١٤٨٧) . وعلى أثر سقوطها غادرها معظم أهلها ، وتفرقوا في أنحاء الأندلس الأخرى الباقية بيد المسلمين ، وجاز كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واستولى النصارى على جميع الحصون والقرى المجاورة ، واستطاعوا عندئذ أن يشرفوا على مالقة من كل صوب . وكانت مالقة ماتزال أمنع ثغور الأندلس ، وقد أضحيت بعد سقوط جبل طارق عقد صلحتها الأخير بعدوة المغرب ، وكان فرديناند يحرص على أن يقطع كل وسيلة ناجعة لتقديم الأمداد من إفريقية وقت الصراع الأخير . وكان الاستيلاء على مالقة يحقق هذه الغاية . ومن ثم فإنه ما كاد النصارى يظفرون بالاستيلاء على بلش والحصون المجاورة ، حتى زحفوا على مالقة وطوقوها من البر والبحر بقوات كثيفة ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٨٩٢ هـ (يونيو ١٤٨٧) وامتنع المسلمون داخل مدينتهم ، وكانت تموج بالمدافعين وعلى رأسهم نخبة مختارة من أكابر الفرسان ، ومعهم بعض الأنفاط والعدد الثقيلة . وكانت مالقة تدين بالطاعة للأمر محمد بن سعد (الزغل) صاحب وادي آش ، ولكنه لم يستطع أن يسير إلى إنجاده بقواته خوفاً من غدر ابن أخيه أمير غرناطة ، فترك مالقة إلى مصيرها وهو يذوب تحسراً وأسى . ولكنه فكر في وسيلة أخيرة لعلها تجدى في إنقاذ الأندلس من خطر الفناء الداهم ، هي أن يستغيث بملوك الإسلام لآخر مرة ، فأرسل رسلاً إلى أمراء إفريقية وإلى سلطان مصر الأشرف قايتباى . ولم يكن من المنتظر إزاء بعد المسافة أن تصبر مالقة على ضغط النصارى حتى يأتيها المدد المنشود . وكان يتولى الدفاع عن الثغر المحصور جند غمارة وزعيمهم حامد الثغرى . وأبدى المسلمون في الدفاع عن ثغرهم أروع ضروب البسالة والجلد ، وحاولوا غير مرة تحطيم الحصار المضروب عليهم ، وفتكوا بالنصارى في بضع مواقع محلية ، ومع ذلك فقد ثار النصارى على ضغطهم وتشديد نطاقهم حتى قطعت كل علاقة للمدينة

المحصورة مع الخارج ، ومنعت عنها سائر الأمداد والأقوات ؛ وعانى المسلمون داخل مدينتهم أهوال الحصار المروع ، واستنفدوا كل ماوصلت إليه أيديهم من الأقوات ، وأكلوا الجلود وأوراق الشجر ، وفتك بهم الجوع والإعياء والمرض ، ومات كثير من من أنجاد فرسانهم ، ولم يجدوا في النهاية لهم ملاذاً سوى التسليم على أن يؤمنوا في أنفسهم وأموالهم . وهكذا سقطت مالقة بعد دفاع مجيد استطال ثلاثة أشهر في أيدي النصارى ، وذلك في أواخر شعبان ٨٩٢ هـ (اغسطس ١٤٨٧ م) . ولم يحافظ فرديناند على ما بذله لأهلها من عهود لتأمين النفس والمال ، وأصدر قراراً ملكياً باعتبار أهلها المسلمين رقيقاً يجب عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم ، ويفرض على كل نفس منهم مهما كان السن والظروف فدية قدرها ثلاثون « دوبلا » ، ويبيح لمن يريد السفر منهم إلى المغرب الانتقال على النفقة الملكية ، وللباقين منهم أن يذهبوا إلى حيث شاءوا ، ماعدا مملكة غرناطة ، ولهم الحرية والأمان (١) . ودخل النصارى المدينة دخول الفاتحين ؛ وعاشوا فيها وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال والمتاع ، وفر من استطاع من المسلمين إلى غرناطة أو وادي آش أو جاز إلى العدو . وكان هذا التصرف نموذجاً لما يضمه ملك النصارى نحو معاملة المسلمين المغلوبين ، ولما تنطوى عليه سياسته من نكث للوعود والعهود . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة في وصف محنة أهل مالقة « وكان مصابهم مصاباً عظيماً تحزن له القلوب وتذهل له النفوس ، وتبكي لمصابهم العيون » (٢).

ولنعد الآن إلى قصة السفارات التي أوفدها أبو عبد الله الزغل إلى ملوك إفريقية ومصر وقسطنطينية يستغيث بهم ، ويلتمس نصرتهم . والتجاء الأندلس إلى ملوك العدو في طالب الغوث والنجدة أمر طبيعي وتقليد أندلسي قديم ، أشرنا إليه مراراً فيما تقدم . ولكن دول المغرب كانت يومئذ يسودها الضعف والتفرق ، ولم يكن في استطاعتها أن تهرع إلى إنجاد الأندلس ، كما فعلت في الماضي غير مرة . ولم يلب نداء مولاى الزغل سوى شراذم ضئيلة من المجاهدين المتطوعين ، جازت البحر إلى الأندلس ، واشتركت في نضالها الأخير .

(١) Irving : Conquest of Granada p. 220, 221; H, Ch. Lea: The Moriscos p. 16

(٢) أخبار مصر ص ٢٧ و ٢٨ .

وأما استغاثة الأندلس بمصر فكانت حدثاً جديداً . على أنه لم يكن ثمة ريب في أن الحوادث الأندلسية المفجعة ، كانت قد ذاعت يومئذ في أنحاء العالم الإسلامي ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة . وكان صداها يتردد في بلاط القاهرة وغيره من قصور المشرق ، وكان أمراء الأندلس وزعمائها مذلاح لهم شبح الخطر الداهم ، يتجهون بأبصارهم إلى دول المغرب والمشرق معاً ، وكانت كتبهم ونداءاتهم في تلك الآونة العصبية تترى على مراكز القاهرة وقسطنطينية . وفي صحف العصر ما يدل على أن مصر كانت بنوع خاص تتبع حوادث الأندلس باهتمام وجزع ، فان ابن إياس مؤرخ مصر في ذلك العصر لم يفته أن يدون في حولياته هذه الحوادث تباعاً ، فنراه يقول في حوادث ذى الحجة سنة ٥٨٨٦هـ (١٤٨١م) ما يأتي : « وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبدالله محمد بن أبي الحسن بن علي بن سعد بن الأحمر قد ثار على أيه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من أبيه ، وجرت بينهما أمور يطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين ، وملكها الفرنج والأمر لله في ذلك » . وفي حوادث رجب سنة ٥٨٩٠هـ (١٤٨٥م) . « وفي رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن » . وفي حوادث جمادى الآخرة سنة ٥٨٩١هـ (١٤٨٦م) « إن صاحب غرناطة (أبا عبدالله) توجه إلى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة وإن الفتن هناك قائمة والأمر لله » (١) . وهكذا كانت حوادث الأندلس تتردد رغم بعد المسافة وصعوبة المواصلة في مصر ، ويدونها مؤرخ مصر المعاصر ، وإن كان في إيرادها تنقصه الدقة والوضوح .

وكانت مصر ترتبط يومئذ مع ثغور الأندلس ولاسيما مالقة وألمرية بعلاقات تجارية وثيقة . وكان لمصر هيبتها التالدة بين الدول النصرانية منذ الحروب الصليبية ، وبالأخص لأنها تحكم البقاع النصرانية المقدسة ، وبين رعاياها ملايين من النصارى . ولم يكن غريباً أن تفكر الأندلس في محنتها القاسية في الإستغاثة بمصر بعد أن رأت قصور الدول المغربية عن إنجادها . وكان من الطبيعي أن تهتم دول الإسلام من أقصاها إلى أقصاها بمصير الأمة الأندلسية ، وأن تفكر في التماس السبيل إلى غوثها

(١) راجع ابن إياس : تاريخ مصر (بولاق) ج ٢ ص ٢١٦ و ٢٣٠ و ٢٣٧ .

إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً . ولا تشير المصادر الإسلامية إلى فكرة أو سياسة معينة وضعتها أو اعتمتها الدول الإسلامية لتحقيق هذه الغاية ، ولكنها تشير فقط إلى سفارة أندلسية وفدت على بلاط مصر . على أن المصادر الغربية تشير بالعكس إلى أن خطة كهذه قد وضعت ونظمت . وخلاصة ما تقوله في ذلك هو أن المشرق كله اهتز لحوادث الأندلس وسقوط قواعدها السريع في يد النصارى ، وأن بايزيد الثاني سلطان الترك والأشرف قايتباي سلطان مصر ، تهادناً مؤقتاً بالرغم مما كان بينهما من خصومات مضطربة وحروب دموية ، وعقداً مخالفة لإنجاد الأندلس وإنقاذ دولة الإسلام فيها ، ووضعاً لذلك خطة مشتركة خلاصتها أن يرسل بايزيد الثاني أسطولاً قوياً لغزو جزيرة صقلية التي كانت يومئذ من أملاك إسبانيا ، ليشغل بذلك اهتمام فرديناند وإيزابيلا ، وأن تبعث سرديات كبيرة من الجند من مصر وإفريقية تجوز البحر إلى الأندلس ، لتتجد جيوشها وقواعدها (١) . ومن الصعب أن نعتقد بأن مثل هذه الخطة الموحدة ، يمكن أن يتفق عليها بين مصر وقسطنطينية في مثل الظروف التي كانت تجوزها علائق البلدين يومئذ ؛ فقد كانت علائق جفاء وقطيعة ، وكان الترك يتربصون بمصر ويطمحون إلى غزوها ، وكانت مصر تخشى العدوان ويسودها التوجس والحذر ، وكان انفصام العلائق بين تركيا ومصر على هذا النحو أبعد من أن يسمح بعقد مثل هذا التحالف بينهما . وكل ما يمكن قوله في هذا الشأن هو أن فكرة إنجاد الأندلس كانت تلتقي في بلاط القاهرة وقسطنطينية نفس العطف ، وإن لم يتفاهما في ذلك على خطة موحدة .

وعلى أي حال فن المحقق الذي لا ريب فيه أن مصر قد تلقت استغاثة الأندلس ، ووضعت خطة دبلوماسية خاصة لإسعافها وإنجادها . وقد وصلت سفارة الأندلس إلى مصر في أواخر سنة ٨٩٢هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧م) . ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتي : « وفي ذى القعدة (سنة ٨٩٢هـ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج ، فانهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم . فلما سمع السلطان ذلك ، اقتضى رأيه أن يبعث إلى القسوس الذين بالقاهرة التي بالقُدس

بأنه يرسلوا كتاباً على يد قسيس من أعيانهم ، إلى ملك الفرنج صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب إشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم ، وإلا يشوش السلطان على أهل القمامة ، ويقبض على أعيانهم ، ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول إلى القمامة ويهدمها ، فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل ، كما أشار السلطان ، فلم يفد ذلك شيئاً وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد (١) . وفي رواية ابن إياس شىء من اللبس . ذلك أن حصار النصارى الأخير لغرناطة ، لم يبدأ إلا في مارس سنة ١٤٩١ الموافق جمادى الثانية سنة ٨٩٦ هـ ، فالأمر لم يكن متعلقاً إذاً بانقاذ غرناطة . وكانت جيوش فرديناند وإيزابيلا منذ بداية سنة ٨٩٢ هـ تتدفق حسبما رأينا على أراضي مولاى الزغل لكي تنزع منه الثغور الجنوبية . وقد استولت على بلش في جمادى الأولى من هذا العام (مايو ١٤٨٧) ، ثم زحفت توا على مالقة ، وضربت حولها الحصار في جمادى الثانية (يونيو سنة ١٤٨٧ م) . وقد وصل صريخ الأندلس إلى مصر في أواخر سنة ٨٩٢ هـ . وذلك بعد أن سقطت مالقة في يد النصارى بنحو ثلاثة أشهر . وإذا فمن الواضح أن هذا الصريخ كان متعلقاً بانقاذ مالقة ، وأنه كان صادراً من مولاى الزغل بطل الأندلس والمدافع عنها يومئذ ، والمشفق عليها من السقوط ، ولم يصدر من صاحب غرناطة وهو ابن أخيه أبو عبدالله محمد ، وقد كان يومئذ يعيش آمناً في ظل الهدنة الغادرة التي عقدها مع النصارى .

ولم يكن من الميسور على مصر أن تلبى نداء الأندلس بطريقة فعالة ، فترسل إليها الأمداد أو المساعدات المادية على ما بينهما من بعد الشقة ، وعلى ما كان يشغل مصر يومئذ من الحوادث الداخلية ، وتوجسها من عدوان الترك على حدودها الشمالية . ولكن مصر حاولت مع ذلك أن تعاون الأندلس بطريق الدبلوماسية ، والضغط السياسى . وسلك بلاط القاهرة في ذلك خطة تدلى بذكاته وحزمه ، وتدلى بالأخص بوقوفه على مجرى الشؤون الخارجية ، وتطور العلاقات الدبلوماسية في هذا العصر .

ذلك أن سلطان مصر الملك الأشرف ، أجاب عن سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصارى . واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصارى ، أحدهما القس انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس في بيت المقدس ، وعهد

إليهما بكتب إلى البابا وهو يومئذ إنوصان الثامن ، وإلى ملك بابل (نابولي) فرديناند الأول ، وإلى فرديناند وإيزابيلا ملكي قشتالة وأراجون . وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة ، وعلى تولى الإعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم ، وسفك دمائهم ، في حين أن رعاياه النصارى في مصر وبيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، آمين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم . ولهذا فهو يطلب إلى ملك قشتالة وأراجون الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضي المسلمين ، وعدم التعرض لهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلى البابا وملك نابول أن يتدخلوا لدى ملكي قشتالة وأراجون ، لردهما عن إيذاء المسلمين والبطش بهم ، هذا وإلا فإن ملك مصر سوف يضطر إزاء هذا العدوان ، إن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحرار في بيت المقدس ، ويمنع دخول النصارى كافة إلى الأراضي المقدسة ، بل ويهدم قبر المسيح ذاته وكل الأديار والمعابد والآثار النصرانية المقدسة (١) .

وغادر القس انطونيو ميلان وزميله الديار المصرية لتأدية سفارة مصر إلى ملوك النصرانية ، ولسنا نعرف موعد هذا الرحيل بالضبط ، ولكن السفيرين وصلا إلى اسبانيا في خريف سنة ١٤٨٩ م أعنى لنحو عام ونصف من وصول صريخ الأندلس إلى القاهرة . وكانت مالقة قد سقطت في يد النصارى منذ عامين ، واستولوا على طائفة أخرى من الحصون والقواعد ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى بسطة حسبما قدمنا ، وضرب فرديناند حولها الحصار . وهناك أمام أسوار بسطة وفد القس انطونيو ميلان وزميله إلى معسكر النصارى في أواخر سنة ١٤٨٩ م ، فاستقبلهما فرديناند بحفاوة وترحاب ، واستلم كتاب السلطان ، واستمع إلى رسالتهما بعناية . وكان السفيران قد عرجا في طريقهما على رومة وقابل أولا ، وقدمتا كتب السلطان إلى البابا إنوصان الثامن وإلى ملك نابول ، فكتب البابا إلى فرديناند وإيزابيلا يسألها عما يجب به على مطالب السلطان ووعيده ، وكتب ملك نابول (فرديناند الأول) إليهما يستفهم عن

(١) ابن إياس في تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٤٦ و Prescott: Ferdinand and Isabella p. 278

Irving : ibid. p. 227 . وظاهر أن في رواية ابن إياس عن تأليف سفارة مصر بعض النقص . ولكن ملخصة لمحتويات الكتب السلطانية في منتهى الدقة .

سير الحرب الأندلسية ، ويلومهما على اضطهاد المسلمين ، وينصح بالكف عنه حتى لا يتعرض نصارى المشرق إلى قصاص السلطان . ويرجع تدخل ملك نابل على هذا النحو إلى خلاف بينه وبين ملك أراجون على حقوق عرش نابل ، وإلى تخوفه من أن يرتد فرديناند إلى محاربتة متى تم ظفره بفتح الأندلس . ثم زار القسان أيضاً مدينة جيان حيث كانت الملكة إيزابيلا ، وأبلغها موضوع سفارتهما ولقيا منها نفس الحفاوة والترحاب (١) .

ولم ير فرديناند وإيزابيلا في مطالب السلطان ووعيده ما يحملهما على تغيير خطتهما ، في الوقت الذي أخذت فيه قواعد الأندلس الباقية تسقط تباعاً في أيديهما ، واقرب فيه أجل الظفر النهائي ؛ ولكنهما رأيا مع ذلك إجابة السلطان ، فكتبنا إليه في أدب ومجاملة ، « أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين ، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية » ، وبذا ارتد القسان إلى المشرق يحملان جواب الملكين إلى السلطان ، ومعهما طائفة من التحف والهدايا .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة ، ولكننا نرجح أنها وصلت إلى بلاط القاهرة ، وإن كنا لانلمس لها أثراً في حوادث هذا العصر . وليس في تصرفات حكومة مصر يومئذ ما يدل على أن السلطان نفذ وعيده باتخاذ إجراءات معينة ضد النصارى أو ضد الآثار النصرانية المقدسة . والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثاني ، وصد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية . وكان الإضطراب من جهة أخرى يسود شؤون مصر الداخلية ، ومن ثم فانه يبدو أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس قد وقفت عند هذا الحد ، ولم تتعد قيام مصر بمظاهر دولية تقوم على استغلال الظروف والمؤثرات الدينية . وهكذا فشلت هذه المحاولة الدبلوماسية الفظة التي بذلتها مصر ، وتركت الأندلس إلى قضائها المحتوم .

وكان سقوط مالمقه أمنع النغور الأندلسية في يد النصارى ضربة أئمة للمملكة

الإسلامية الممزقة ، يحرمها من كثير من ضروب الإمداد والغوث التي كانت تأتيها من وراء البحر ، وكان واضحاً أن ملك قشتالة كان يرمى إلى قطع هذه الأمداد بكل الوسائل . ولم يكن باقياً بعد ضياع جبل طارق ومالقة ، بيد المسلمين من الثغور سوى المرية والمنكب ، وإليهما كانت تفد جموع المتطوعة والمجاهدين ، بالرغم من بعدهما عن شواطئ العدو ، وكان لا بد من الاستيلاء عليهما ، قبل أن تقطع كل صلة للأندلس نهائياً بحدود المغرب وشمال إفريقيا . وقضى فرديناند قبل تنفيذ هذه الخطة زهاء عام ، يعمل على تطهير منطقة مالقة ، والاستيلاء على ما تبقى من الحصون الشرقية والغربية ، حتى استولى عليها جميعاً ولم يبق منها بيد المسلمين شيء .

وفي خريف سنة ١٤٨٩ م (أواخر سنة ١٤٩٤ هـ) سار فرديناند إلى ثغر المنكب (المونيكار) الواقع في منتصف المسافة بين مالقة والمرية ، فاستولى عليه دون مشقة ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى زحف على المرية وحاصرها ، ولم يطل دفاع هذا الثغر المنعزل ، وسلمت المرية للخزاة في فبراير سنة ١٤٩٠ (١٤٩٥ هـ) ، ومنحت للتسليم شروطاً أريد أن تكون نموذجاً لما سيمنح لباقي القواعد الإسلامية ، وخلاصتها أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم ، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب والأيول عليهم يهودي ، وألا يدخل نصراي في « الجماعة » ، وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات من النصاري لأنفسهم الدين الذي يريدون عند البلوغ ، وغير ذلك من المنح المغربية ، وهكذا تم بسقوط المرية استيلاء النصاري على جميع شواطئ الأندلس الجنوبي .

ولما تم قطع علائق الأندلس على هذا النحو مع عدوة المغرب وشمال إفريقيا ، بدأ فرديناند في تنفيذ خطته النهائية للقضاء على ما بقي في الداخل من المملكة الإسلامية . وكانت مملكة غرناطة قد انقسمت كما رأينا إلى شطرين ، الأنحاء الشرقية وتشمل وادي آش وأعمالها ويحكمها الأمير محمد بن سعد أبو عبد الله الزغل ، والأنحاء الغربية وتشمل مدينة غرناطة وأعمالها ، ويحكمها الأمير أبو عبد الله محمد بن علي ، فقد ر فرديناند أن يبدأ بالأنحاء الشرقية ، وأن يقضي أولاً على سلطان أبي عبد الله الزغل لما كان يخشاه من عزمه وشديده بأسه ، فأكاد ينتهي من إخضاع ثغر المرية حتى اتجه شمالاً نحو مدينة بسطة ، وبقيت الملكة إيزابيلا مع حاشيتها في جيان على مقربة من الجيش

الفاتح ؛ وكانت بسطة من أهم القواعد الشرقية التي يسيطر عليها مولاي الزغل بغدادي وادي آش مقر حكمه ؛ ولم يستطع الزغل أن يغادر معقله في وادي آش للدفاع عن بسطة ، خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبو عبدالله في غيبته ، فأرسل إليها حامية مختارة من أنجاد الفرسان بقيادة الأمير يحيى ؛ وحاول القشتاليون الإطباق على بسطة ومحاصرتها فرددتهم المسلمون عن أسوارها غير مرة ، ونشبت بين الفريقين خارج الأسوار عدة معارك حامية مني فيها النصاري بخسائر فادحة ؛ ومع أن النصاري بدأوا هجومهم على بسطة في شهر رجب سنة ٨٩٤هـ (١٤٨٩م) فانهم لم يستطيعوا تطويقها ومحاصرتها بصورة فعلية إلا بعد ذلك بثلاثة أشهر ، وهنا امتنع المسلمون داخل المدينة بعد أن أئخنوا في عدوهم غير مرة ، واستنفدوا أقواتهم المدخرة . وضيق النصاري الحصار على بسطة مدى ثلاثة أشهر حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، وقلت الأقوات واشتد الكرب . ولما رأى المسلمون أنه لم يبق في الدفاع ثمة أمل ، وقد نفذت المؤن ، وفتك الجوع والمرض بالعامّة ، فاوضوا القشتاليين في التسليم على شروط اشترطوها ، وفي مقدمتها أن يؤمنوا في النفس والمال ؛ فقبل النصاري هذه الشروط وسلمت بسطة ، ودخلها النصاري في العاشر من محرم سنة ٨٩٥هـ (ديسمبر سنة ١٤٨٩م) وغادرها معظم أهلها إلى وادي آش حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وهرعت جميع الحصون والمحلات القريبة إلى التسليم والدخول في طاعة ملك النصاري ، وهكذا بسط فرديناند سلطانه على قواعد الأندلس الشرقية كلها من البحر إلى الشمال ، ولم يبق خارجاً عن طاعته سوى مدينة وادي آش مقر مولاي الزغل .

على أنه لم تمض أسابيع قلائل ، حتى سارع مولاي الزغل بدوره إلى الانضواء تحت لواء ملك النصاري . وكان الزغل منذ التجأ إلى وادي آش ، يرقب سير الحوادث بجزع ، ويرى قواعد الأندلس تسقط بالتعاقب ، ودون أن ينجدها منجد ، ويرى أمل الإنقاذ يخبو تباعاً . فلما سقطت بسطة آخر القواعد التي يسيطر عليها ، واتجه النصاري نحو وادي آش معقله الوحيد الباقي ، ورأى بالرغم من شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل ، وأن جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب ، اعزم أمره ، وسار إلى ملك النصاري يعرض عليه طاعته ، والانضواء تحت لوائه ؛ فأجابه فرديناند إلى مطالبه ، وبايعه الزغل وسائر قادته بالخضوع والطاعة ؛ ودخل النصاري مدينة

وادی آتش فی أوائل صفر سنة ٨٩٥ هـ (يناير ١٤٩٠م) واتفق أولاً أن يستمر الزغل في حكم أراضيه باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وأن يلقب بملك أندرش ، وأن يمنح دخلاً سنوياً كبيراً . ولكن الزغل لم يلبث أن رأى أنه يستحيل عليه الاستمرار في ذلك الوضع المهين ، فنزل لفرديناند عن حقوقه وامتيازاته لقاء مبلغ ضخم ، وجاز البحر إلى المغرب ، ونزل في وهران أولاً ثم انتقل إلى تلمسان ، واستقر يقضى بها بقية حياته في عمر من الحشرات والندم ، ولبث عقبه هنالك عصوراً يعرفون ببني سلطان الأندلس ؛ وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الإسلام بالأندلس قد غدت قضاء محتوماً (١) .

وقد نقل إلينا مؤرخ معاصر رواية مفادها أن تسليم مولاي الزغل لملك قشتالة كانت نوعاً من الخيانة المقصودة ، وأنه تنازل هو وقواده عن البلاد التي كانت تحت أيديهم طوعاً مقابل قبض ثمنها ، وذلك لكي ينتقم الزغل من ولد أخيه الأمير أبي عبدالله محمد بن علي صاحب غرناطة ، فتصبح بعد خضوع سائر أنحاء الأندلس وحيدة تحت رحمة النصارى ، وترغم على التسليم إليهم ، وينتهي بذلك إمارة أميرها وحكمه (٢) ، وهي رواية لا تتفق في نظرنا مع ما أثير عن مولاي الزغل من ضروب العزم والنبالة والشهامة والغيرة الإسلامية ، التي رأيناها ماثلة خلال هذه الحوادث المؤسفة ، وإنما استسلم الزغل وخضع ، نزولاً على حكم ظروف قاهرة لم ير إلى مغالبتها سبيلاً .

(١) أخبار العصر ص ٣١؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٦١٣ و٦١٤ . وراجع Prescott: ibid ; p. 285

(٢) أخبار العصر ص ٣٢ .

الفصل الثالث

الصراع الأخير

فرديناند وإيراييلا يطلبان تسليم غرناطة . تضعف المملكة الإسلامية . موقف أبي عبد الله والقادة . الحماسة في غرناطة . غزو فرديناند لبسائط غرناطة . رد المسلمين للنصارى . خروج أبي عبد الله للغزو . المعارك بين المسلمين والنصارى . محاولة أبي عبد الله استرداد المنكب . الاضطراب في وادي آس . فرديناند يعلن الامان . هجرة المسلمين من القواعد الذهبية . تاهب فرديناند لافتتاح غرناطة . زحفه عليها . عيث النصارى في المروج . محاصرة النصارى لغرناطة . فرديناند ينشئ أمامها مدينة شنتفى . موقف غرناطة وأحوالها . بسالتها في الدفاع . موسى بن أبي الفسان فارس غرناطة . يثير حماسة الشعب . يقود الفرسان ويزعج النصارى . تنظيم الدفاع داخل المدينة . اشتداد الحصار وانقطاع الامداد . تقرير حاكم المدينة . تصميم موسى على الدفاع . فرديناند يزحف على المدينة . خروج المسلمين للقائه هزيمة المسلمين وارتدادهم . أهوال الحصار . اجتماع السلطان والقادة . تقرير التسليم . اعتراض موسى . ندب الوزير أبي القاسم عبد الملك للمفاوضة . رواية عن التسليم . مفاوضات التسليم . شروط التسليم وضماناته . مصير أبي عبد الله . حلف فرديناند باحترام الشروط . توقيع وثيقة التسليم . ارتياب موسى ونذيره . اذعان أبي عبد الله والجماعة . أقوال موسى ونبوءته . مغادرته لغرناطة . مصيره الغامض . الحزن واليأس في غرناطة . التعجيل باجراءات التسليم . ارسال الرهائن الى فرديناند . دخول القشتاليين غرناطة . يرفعون الصليب فوق الحمراء . رواية عربية معاصرة عن دخول فرديناند غرناطة . أهبة أبي عبد الله لمغادرة عاصمة ملكه . المناظر المؤسسه والركب الباكي . قصيدة شوقى في وصفها . اللقاء بين أبي عبد الله وفرديناند . « زفرة العربى الأخيرة » . رثاء الأندلس .

لم يبق على ملكى قشتالة وأراجون ، فرديناند وإيزابيلا ، بعد أن دانت لهما سائر الثغور والقواعد الأندلسية الجنوبية والشرقية ، لإتمام خطتهما في القضاء على دولة الإسلام بالأندلس ، سوى الاستيلاء على غرناطة آخر القواعد الباقية بيد المسلمين ؛ ولم تكن غرناطة يومئذ مملكة أو دولة ، بل كانت رمزاً فقط للمملكة الإسلامية الذهبية ، وكانت واسطة عقد تصرمت سائر حباته ، وكانت كالمصباح المرتجف يخبو ضوءه سراعاً ، فلم يكن يقتضى إطفائه سوى الضربة الأخيرة .

وقد رأى فرديناند وإيزابيلا أن الوقت قد حان لتسديد هذه الضربة . عقب استسلام مولاى الزغل ، وسقوط وادى آش . ففي أوائل سنة ١٤٩٠ (٨٩٥ هـ) أرسل الملكان النصرانيان سفيراً إلى ملك غرناطة ، السلطان أبى عبد الله محمد بن على يطلبان إليه تسليم عاصمته ، وذلك وفقاً لشروط معاهدة لوشة التى تعهد فيها بتسليم غرناطة حينما يتم تسليم بسطة وألمرية ووادى آش (١) . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة ، إن ملك قشتالة لم يطلب تسليم غرناطة ذاتها ، ولكنه اكتفى بأن طلب إلى أبى عبد الله تسليم مدينة الحمراء أو قنصور الحمراء مقر الملك والحكم ، وأن يبقى مقبياً فى غرناطة فى طاعته وتحت حمايته ، أسوة بما فعلته سائر نواحي الأندلس (٢) ، أو أن يقطعه أية مدينة أخرى من مدن الأندلس يختار الإقامة فيها ، وأن يمدّه بمال جزيل (٣) .

فماذا كان جواب أبى عبدالله ؟ لقد كان فى سابق موافقه ، وممالاته لملك قشتالة ، ومحالفته إياه ، وما يدين له به من تغلبه على عمه ومنافسه الزغل ، وجلوسه على العرش ، ما يحمله فرديناند وإيزابيلا على توقع استسلامه وخضوعه ؛ ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان . وكانت الخطوب والمحن التى جازتها الأندلس فى هذه الأعوام المليئة بالحوادث ، قد جعلت من أبى عبدالله رجلاً آخر ؛ وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعاً ، ويستشف من ورائها القدر المحتوم ؛ وكان قد تخلص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوى ، ولكنه فقد فى الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الإعتماد عليه فى الدفاع والمقاومة ؛ وكانت سائر قواعد الأندلس الأخرى قد غدت نهائياً من أملاك مملكة قشتالة ، وعين لها حكام من النصارى ، وتذجن من بقى من أهلها أو غدوا مدجنين Mudijares يدينون بطاعة ملك النصارى ، وذاعت بها الدعوة النصرانية ، وارتد كثير من المسلمين حرصاً على أوطانهم ومصالحهم أو اتقاء الريب والمطاردة ؛ ولكن كثيراً منهم ممن أشفقوا على أنفسهم ودينهم ، جازوا البحر إلى المغرب ، وهرعت جموع غفيرة أخرى منهم إلى غرناطة معقل الإسلام الوحيد الباقى ، حتى غدت الحاضرة تملج بسكانها الجدد ، وحتى أصبحت تضم

(١) Prescott : ibid ; p. 289

(٢) أخبار العصر ص ٣٣ .

(٣) نفع الطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

بين أسوارها وأرباضها أكثر من أربعمائة ألف نفس . وكانت موجة عامة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف ، التي أوذيت في الأوطان والأنفس والولد والمال ، دون أن تجنح ذنباً أو جريرة ؛ وكانت فكرة التسليم للعدو الباغي أو مهادنته ، تلقى استنكاراً عاماً . ولم يكن أبو عبدالله يجهل هذا الاتجاه العام ، فلما وفد إليه سفير ملكي قشتالة يطلب التسليم ، ثارت نفسه لهذا الغدر والتجنى ، وأدرك وربما لأول مرة ، فداحة الخطأ الذي ارتكبه في مخالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بني وطنه ودينه ؛ وجمع أبو عبدالله الكبراء والقادة فأجمعوا على رفض ماطلبه الملكان النصرانيان ، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم (١) ، وأبلغ أبو عبد الله ملك قشتالة على يد سفيره ، بأنه لم يعد له القول والفصل في هذا الأمر ، وأن الشعب الغرناطي يأتي كل تسليم أو مهادنة ويصمم على المقاومة والدفاع (٢) .

هكذا كان جواب أبي عبدالله للملكي قشتالة ، وهكذا حمل الأمير الضعيف بعزم شعبه ، من الإستكانة والمهادنة إلى التحدى والمقاومة ، ودوت غرناطة بصيحة الحرب والجهاد ، وخرجت سريرات من الجند المسلمين لتعيث في الأراضي النصرانية القريبة . وفي ربيع سنة ١٤٩٠ (٥٨٩٥ هـ) خرج ملك قشتالة في قواته وهو يضطرم سخطاً ، وزحف على بسائط غرناطة فعاث فيها وانتسف الزرع واستاق الماشية ، وخرّب الضياع والقرى ، ووصل في عيته وتخريبه حتى أسوار الحاضرة ذاتها ، وبرز المسلمون لقتاله وعلى رأسهم أميرهم أبو عبد الله ، ووقعت بين الفريقين في ظاهر غرناطة ، عدة ملاحم دموية ارتحل النصارى على أثرها ، ولم يستطيعوا الدنو من المدينة (رجب سنة ٥٨٩٥ هـ) . وعمد فرديناند حين العودة إلى تحصين بعض الحصون القريبة من غرناطة ، مثل برج الملاحية وبرج رومة وغيرها ، وشحنها بالرجال والعدد استعداداً للمعارك القادمة .

وعلى أثر ارتحال القشتاليين ، خرج أبو عبدالله في قواته يحاول استرداد بعض الحصون والمراكز القريبة ، فاستولى على قرية البذول عنوة ، ثم استولى على غيرها من القرى ، ودبت في المسلمين في تلك الأنحاء روح جديدة ، وثار أهل البشترات

(١) أحبار النصر ص ٣٤ ؛ وفتح أطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

(٢) Prescott : ibid ; p. 290

(البشره) وما حولها على حكامهم النصارى ، وبعثوا إلى أمير غرناطة يطالبون عونهُ ، فخرج أبو عبدالله في قواته يريد حصن أندرش ، وكان عمه الأمير محمد بن سعد (الزغل) لا يزال به ، فلما سمع بمقدمه خرج مع صحبه إلى المرية ، وبقى بها إلى أن جاز البحر إلى المغرب كما قدمنا ، واستولى أبو عبدالله على أندرش وغيرها من المحلات والحصون القريبة من غرناطة ، ورتب بها حاميات من المسلمين للدفاع عنها (شعبان ٥٨٩٥ هـ) (١) .

واستمرت هذه المعارك المحلية مدى حين سجلا بين المسلمين والنصارى ، فاسترد النصارى حصن أندرش لأسابيع قليلة من فقدته ، وغادره الفرسان المسلمون إذ كانوا قلة لم تستطع للعدو دفعاً . وفي شهر رمضان سنة ٥٨٩٥ هـ خرج أبو عبدالله في قواته إلى قرية همذان القرية ، فافتتحها واخرق المسلمون أبراجها الكثيفة ، وكانوا يخشون أن تمتنع عليهم لحصانها ، واغتنموا منها مقادير وفيرة من الذخائر والأطعمة ، وأسروا من حاميتها نحو مائتين ، وعاد المسلمون إلى غرناطة فرحين ظافرين ، وعمرت الحاضرة المسلمة موجة من البشر والثفاؤل . وفي أواخر رمضان خرج أبو عبدالله في قواته يريد افتتاح ثغر المنكب ، وإعادة الصلة بين الأندلس وشواطئ المغرب ، وهي صلة يعلق عليها المسلمون أهمية خاصة ، ويعتبرونها من أبواب الغوث والإنقاذ ، واستولى أبو عبدالله في طريقه على حصن شلوبانمة بعد قتال عنيف . وهنا ترامت إليه الأنباء بأن ملك قشتالة قد عاد بجنده إلى مرج غرناطة يعيث فيه فساداً وتخريباً ، فتوقف عن السير . وكان فرديناند قد هاله ما حدث من الإضطراب والتصدع في المناطق المفتوحة . والواقع أن بوادر الإنتفاض والثورة كانت قد أخذت تسرى إلى وادي آش وما حولها من الضياع والقرى ؛ وأخذ ظفر المسلمين في تلك المعارك المحلية يدكي عزم الثوار ويشجعهم ، واستجاب أبو عبدالله إلى نداء أهل وادي آش وعاونهم بالرجال والدواب على نقل أمتعتهم وأموالهم ، وعلى الرحيل بالأهل والولد إلى غرناطة ، ونقل من تلك القرى والضياع مقادير وافرة من الحبوب والأطعمة وغيرها . وما كادت جموع المسلمين تترد راجعة إلى غرناطة ، حتى ظهر فرديناند بجيشه أمام وادي آش ، ورأى أن يأخذ الأمر باللين والرفق ، فأذاع الأمان لمن عاد إلى وطنه ،



obeikandi.com

وأذن لمن شاء بالرحيل ، وغادر المسلمون وادي آش وأعمالها . وحدث مثل ذلك في المرية وبسطة ، فترك المسلمون بيوتهم وأوطانهم حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وسارت منهم جموع غفيرة إلى غرناطة ، وجازت جموع أخرى البحر إلى المغرب ، وأقمرت تلك الأنحاء من معظم سكانها المسلمين ؛ وانتهز أبو عبد الله فرصة هذا الإضطراب ، فاستولى على حصن أندرش للمرة الثانية ، واستولى على عدد آخر من الحصون الهامة (١) .

وهنا أيقن ملك قشتالة أنه لا بد لاستتباب الأمور في المناطق الإسلامية المفتوحة ، من الإستيلاء على غرناطة التي مازالت تثير بمثلها وصلابتها روح الثورة في تلك الأوطان المغلوبة على أمرها ، ففضى الشتاء كله (سنة ١٤٩٠) في الاستعداد والأهبة . وفي أوائل سنة ١٤٩١ خرج فرديناند في قواته معتمداً أن يقاتل الحاضرة الإسلامية حتى ترغم على التسليم . ويقدر بعض المؤرخين هذا الجيش الذي أعد لافتتاح غرناطة بخمسين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة ، ويقدره البعض الآخر بثمانين ألفاً (٢) ، وزود فرديناند جيشه بالمدافع والعدد الضخمة والذخائر والأقوات الوفيرة . وأشرف ملك قشتالة بجيشه على فحص غرناطة La Vega الواقع جنوبي الحاضرة الإسلامية ، في اليوم الثالث والعشرين من ابريل سنة ١٤٩١ م (١٢ جمادى الثانية سنة ٨٩٦ هـ) وعسكر على ضفاف نهر شنيل ، على قيد فرسخين من غرناطة ، في ظاهر قرية تسمى « عتقة » . وأرسل في الحال بعض جنده إلى حقول البشراة القريبة التي تمتد غرناطة بالمون فاتفقوا زروعها ، وهدموا قراها ، وأمعنوا في أهلها قتلاً وأسراً ، وحولوا المرج الأخضر إلى بسيط من القفر الموحش ، وقطعوا بذلك عن غرناطة مورداً من أهم مواردها (٣) .

وضرب فرديناند حول الحاضرة الإسلامية الحصار الصارم ، وصمم على متابعتها حتى تفتح أو تستسلم ، وقرر تأكيداً لهذا العزم أن ينشئ بلجيشه في المكان الذي

(١) أخبار العصر ص ٣٨ — ٤٨ ؛ ونجح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ . وراجع أيضاً Prescott ; ibid ;

p. 290 & 291 ، ويوجد فرق يسير في التفاصيل بين الروايتين الإسلامية والنصرانية .

(٢) Prescott ; ibid ; p. 291 .

(٣) أخبار العصر ص ٤٤ و Prescott ; ibid ; p. 294

عسكر فيه ، مدينة مسورة تقيه برد الشتاء إذا ما حل ، وتم بناء هذه المدينة الجديدة في ثلاثة أشهر ، وأسمتها الملكة إيزابيلا (سانتافي) Santa Fé وبالعربية (شنتفى) أو العناية المقدسة ، وذلك تنويهاً بالمغزى الدينى لهذه الحرب الصليبية ؛ وما زالت هذه المدينة التاريخية تقوم حتى اليوم ، في المكان الذى أنشئت فيه في جنوب غربى غرناطة . ويصفها المؤرخ الإشبانى بأنها « المدينة الإسبانية الوحيدة التى لم تطأها قط قدم مسلم (١) » .

وهكذا بدأ الفصل الأخير في الصراع بين النصرانية والإسلام في اسبانيا ؛ ولم يك ثمة شك في نتيجة هذا الصراع ، الذى أعدت له اسبانيا النصرانية عدتها الحاسمة ، ومهدت له جميع الوسائل والسبل . بلد إسلامى وحيد هو البقية الباقية من دولة عظيمة تالدة ، يحيط به العدو كالموج الزاخر من كل ناحية ، مزوداً بالعدد والمؤن الموفورة ، وقد قطعت كل موارده وصلاته مع الخارج . كان هذا موقف غرناطة آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس في صيف سنة ١٤٩١م . على أن غرناطة لم تكن مع ذلك غنماً سهلاً ، فقد كانت منيعة بموقعها وظروفها ، تحميها من الشرق آكام جبل شلير (سيرانفادا) الشاخمة ، وتحميها من الجنوب أعنى من الجانب المواجه للمعسكر النصرانى ، أسوار وأبراج في منتهى الكثافة والمناعة . وكانت غرناطة تموج يومئذ بالوافدين إليها من مختلف القواعد الإسلامية الذاهبة ، وتضم بين أسوارها من السكان أكثر من مائتى ألف نفس ، ومع أن هذا العدد الضخم من الأنفس كان عبئاً ثقيلاً على مواردها المحدودة ، فقد كان من بينهم على الأقل زهاء عشرين ألفاً من الصفوة المختارة من الفروسة الأندلسية ، التى ألقت ملاذها الأخير في العاصمة المحصورة . ومن جهة أخرى فقد كانت الحاضرة الإسلامية منذ بعيد تلمح شبح الخطر الدايم يتربص بها دائماً ، وكانت تعيش في أهبة دائمة لمواجهة ، وتجمع ما استطاعت من الأقوات والمؤن . فلما دهمها الحصار كانت على أهبة تامة للدفاع طويل الأمد . كانت غرناطة تستشعر قدرها المحتوم ، ولكنها لم ترد أن تستسلم إلى هذا القدر القاهر ، قبل أن تستنفد في اجتنابه كل وسيلة بشرية ، ومن ثم كان دفاعها من أمجد

ما عرّف في تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة ؛ ولم يكن هذا الدفاع قاصراً على تحمل ويلات الحصار مدى أشهر ، بل كان يتعداه إلى ضروب رائعة من الإقدام والبسالة ، فقد خرج المسلمون خلال الحصار لقتال العدو المحاصر مراراً عديدة ، يهاجمونه ويثخنون في محلاته ، ويفسدون عليه خططه وتدابيره . وتشير الرواية الإسلامية كما تشير الرواية النصرانية إلى هذه المعارك الأخيرة التي وقعت في بسائط غرناطة بين المسلمين والنصارى (١) . وتنوّه الرواية النصرانية بما كان يبديه الفرسان المسلمون من الشجاعة والإقدام والبراعة ، أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسة الأندلسية ، التي لبثت قروناً زهرة الفروسية في العصور الوسطى .

وكان روح الفروسة المسلمة في تلك الآونة العصبية فارس رفيع المنبت والخلال ، وافر العزم والبراعة ، هو موسى بن أبي الغسان (٢) وهو سليل إحدى الأسر العربية التي تتصل ببنت الملك ، وأحد هذه الأصول العربية القديمة التي عرفت براءع فروستها ، وعميق بغضها للنصارى ، والتي كانت ترى الموت خيراً ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهاداً للكفر . ولم يكن بين أنجاد غرناطة يومئذ من هو أبرع من موسى في الطعان والفروسية ، وكان مذتبواً أبو عبدالله محمد عرش غرناطة ، ينقم منه استكائه وخضوعه لملك النصارى ، ويعمل بكل ما وسع لإذكاء روح الحماسة والجهاد ، وتنظيم الفروسة الغرناطية وتدريبها ، وقيادة السرايا إلى أراضي العدو ، ومفاجأة حصونه وحامياته في الأنحاء المجاورة . ولما بعث فرديناند الخامس إلى أبي عبدالله يطلب تسليم الحمراء ، كان موسى من أشد المعارضين في إجابة هذا المطلب المهين ، وكان لعزمه وحماسه أكبر أثر في تطور الموقف ، وحمل الأمير والشعب على اعتزام الجهاد ، والدفاع إلى آخر رمق ، وكان قوله المأثور يومئذ : « ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح ، فاذا طمّح إلى سيوفنا

(١) أخبار العصر ص ٤٥ ؛ وكذلك Irving : ibid ; p. 293 & foll.

(٢) لم نعر في المصادر العربية التي بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله ؛ ومرجعنا في ذلك هو المؤرخ الإسباني كوندى (الترجمة الإنجليزية ج ٣ ص ٣٩٠ وما بعدها) ، ويقول كوندى إنه نقل روايته عن مصادر عربية ؛ ولكنه كما دته لم يذكر لنا هذه المصادر . على أن قصة موسى تشغل حيزاً كبيراً في الروايات الإسبانية التي كتبت عن فتح غرناطة ، ومن أشهرها روايه القس أنطونيو أجاييدا التي سبقت الإشارة إليها ، والتي ينقل منها إيرفينج في كتابه شذوراً ضافيه .

فليكسبها ، وليكسبها غالبية . أما أنا فخير في قبر تحت أفتقاض غرناطة ، في المكان الذي أموت مدافعاً عنه ، من أفخم قصور نغمها بالخضوع لأعداء الدين » .
وهكذا دوت غرناطة بصيحة الحرب . ولما أشرف ملك قشتالة بجموعه على مرج غرناطة ، كان موسى معبود الجند والشعب ، وكان زعيم الفروسة المسلمة يقودها كلما سنحت الفرصة إلى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة ففتحن فيها ، وكانت عوداته الظافرة تثير في الشعب أيما حماسة ؛ وكان فرديناند يرسل جنده لإتلاف المزارع والحقول المجاورة ، فكان موسى ينظم السريات لإزعاج قواته ، وقصع مواصلاته وانتزاع موثته ؛ ولكن جيوش النصارى ما لبثت أن ملأت فحص شانييل (La Vega) وطوقت غرناطة ، وشدت في حصارها ، واضطر المسلمون إلى الامتناع بمدنيتهم صابرين جلدتين ؛ وقسم للدفاع عن المدينة بين زعماء الجيش والأسرى ، فتولى موسى قيادة الفرسان يعاونه نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة . وتولى آل الثغري حراسة الأسوار . وتولى زعماء القصبية والحمراء حماية الحصون . ولم تكن المعارك الجريئة التي كان يخوضها المسلمون خارج الأسوار من آن لآخر ، سوى عنوان أخير لفروستهم وبسالتهم ولكنها لم تكن لتغني شيئاً ، أمام ضغط العدو وتفوقه وتصميمه .

ذلك أن ملك قشتالة لم يترك وسيلة لإحكام الحصار وإرهاق المدينة المحصورة ، فقطع جميع علائقها مع الخارج سواء من البر أو البحر ، ورابطت السفن الإسبانية في مضيق جبل طارق ، وعلى مقربة من الثغور الجنوبية ، لتحول دون وصول أى مدد من إفريقية ، ولم يبق أمام غرناطة سوى طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شليير (سييرانفادا) تجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة (١) . ولبثت المدينة المحصورة تعاني مصائب الحصار صابرة جلدة ، حتى دخل الشتاء ، وغصت هذه الوهاد والشعب بالثلوج ، واشتد الجوع والبلاء بالمحصورين . عندئذ تقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك ذات يوم إلى مجلس الحكم ، وقرر أن المؤن الباقية لا تكفي إلا لأمد قصير ، وأن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامّة ، وأن الاستمرار في الدفاع عبث لا يجدى . ولكن موسى بن أبي الغسان اعترض كعادته بشدة ، وقرر أن الدفاع ممكن وواجب ، وبث بادرة جديدة من الحماسة في الرؤساء والقادة .

(١) أخبار العصر ص ٤٦ .

فاستسلم السلطان أبو عبدالله محمد إلى تلك الروح ، وسلم إلى القادة أمر الدفاع ، وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان ؛ وكان في مقدمة مساعديه فارسان من أنجاد العصر هما نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة . ثم أمر بفتح الأبواب ، وأعد فرسانه أمامها ليل نهار ، فاذا اقربت سرية من النصارى دهمها الفرسان المسلمون ، وأثخنوا فيها ، ومزقت على هذا النحو صفوف من النصارى . وكان موسى يقول لفرسانه « لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها فاذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن » .

وأخيراً رأى ملك قشتالة أن يزحف بقواته على أسوار المدينة ، فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم أبو عبدالله وموسى ، ونشبت بين الفريقين في فحوص غرناطة عدة معارك دموية ، وكان الفرسان المسلمون وعلى رأسهم موسى روح المعركة وقوامها ، وكان أبو عبدالله يقود الحرس الملكي ، وكان القتال رائعاً خضب فيه كل شبر من الأرض بدماء الفريقين ؛ ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعافاً لا يعتمد عليهم ففرقوا بسرعة ، وتبعهم فرسان الحرس الملكي إلى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبو عبدالله ، وعبثاً حاول موسى أن يجمع شمل الجند ، وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ما هو مقدس لديهم ، والى نفسه وحيداً في الميدان مع فرسانه المخلصين ، وقد تضاعل عددهم وأثخن الباقون منهم جراحاً ، فاضطر عندئذ أن يرتد إلى المدينة وهو يرتجف غضباً ويأساً .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة وامتنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين ، يرون شبح النهاية المحتومة ماثلاً ، فلم تبق سوى أيام أو أسابيع قلائل ، حتى يصبح سقوط الوطن العزيز في يد العدو أمراً واقعاً ، وحتى تصبح أنفسهم وأموالهم وحریاتهم ودينهم رهناً في يد القدر . وكان قد مضى على حصار غرناطة منذ بدأ الربيع حتى دخول الشتاء زهاء سبعة أشهر ، والمسلمون يغالبون أهوال الحصار ، وتتفاقم محنتهم شيئاً فشيئاً . فلما جاءت خاتمة المعارك مبددة لكل أمل في الإنقاذ ، واشتد فتك الجوع والحرمان والمرض ، ودب اليأس إلى قلوب الناس جميعاً ، لم يبق مناص من إعادة النظر في الموقف . فدعا أبو عبدالله مجلساً من كبار الجند والفقهاء والأعيان ، فاجتمعوا في بهو الحمراء الكبير ، واليأس باد في وجوههم ، وشرح لهم أبو القاسم عبد الملك كيف وصل الخطب إلى ذروته ، فهلكت أنجاد الفرسان ، ونخبت قوى الدفاع ، ونضبت الأقوات

والمؤمن ، واشتد البلاء بالناس ، وغاض كل أمل في تلقي الأمداد من عدوة المغرب .
 وصرح « الجماعة » بأن الشعب لا يقوى بعد على تحمل ويلات الدفاع ، وأنه لم يبق
 سوى التسليم أو الموت ، واتفق الجميع على وجوب التسليم (١) . ولم يرتفع بالإعتراض
 سوى صوت واحد هو صوت موسى بن أبي الغسان . فقد حاول كعادته أن يبث
 بكلماته الملهية قبسا أخيرا من الحماسة ؛ وكان مما قال : « لم تنضب كل مواردنا
 بعد ، فما زال لنا مورد هائل للقوة كثيرا ما أدى المعجزات : ذلك هو ياسنا ، فلنعمل
 على إثارة الشعب ، ولنضع السلاح في يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ؛ وإنه
 لخير لى أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين
 شهدوا تسليمها » .

على أن كلماته لم تؤثر في هذه المرة ، فقد كان يخاطب رجالا نضب الأمل
 في قلوبهم ، وغاضت فيهم كل حماسة ، ووصلوا إلى حالة من اليأس لا تنجع فيها
 البطولة ، ولا يحسب للأبطال حساب ، بل يعلو نصح الشيوخ ويغلب . وهكذا
 حدث فإن السلطان أبا عبد الله فوض الأمر للجماعة ، واتفق الجماعة على مفاوضة ملك قشتالة
 في التسليم ، واختير الوزير أبو القاسم عبد الملك للقيام بتلك المهمة ؛ وكان ذلك
 في أكتوبر سنة ١٤٩١ (أواخر سنة ٨٩٦هـ) . وتقول بعض الروايات الإسلامية
 المعاصرة إن أمير غرناطة ووزيره وقواده كان قد تقدم الكلام بينهم وبين ملك قشتالة
 سرا في تسليم غرناطة ، ولم يجرأوا على المجاهرة بعزمهم خشية انتقاض الشعب ، وأنهم
 لبثوا حيناً يلاطفون الشعب ويملقونه ، حتى أنفقوا السبيل ممهداً للعمل برضاء الشعب
 وموافقته ، ويستشهد أصحاب هذه الرواية بما حدث من انقطاع المارك بين المسلمين
 والنصارى حيناً قبل بدء المفاوضة في التسليم ، وتزيد الرواية على ذلك بأن القواد المسلمين
 الذين اضطلوا بهذه المفاوضة تلقوا تحفاً وأموالاً جزيلة من ملك قشتالة (٢) . ذلك
 ما تزعمه بعض الروايات المعاصرة التي تنقلها إلينا المصادر الإسلامية . ولو صححت هذه
 الوقائع لما ترددت الرواية النصرانية في إثباتها . ولكننا لم نجد في الرواية النصرانية
 ما يؤيد مثل هذا التصرف الشائن من جانب زعماء غرناطة ، الذين تشيد الرواية النصرانية

(١) أخبار العصر ص ٤٨ و ٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

(٢) أخبار العصر ص ٤٨ و ٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

بجاسمتهم وشجاعتهم وبسالتهم ، في الذود عن وطنهم ومدينتهم ، وكل ما هنالك أن الرواية النصرانية تقول لنا إن مفاوضات التسليم أجريت بكل حرص وتكتم ، لأن أهل غرناطة كانوا بالرغم من تفاقم محتهم ، يتطلعون دائماً إلى تلبية الغوث والإمداد من إفريقية أو غيرها (١) . وهذا لا يعني أنه كانت ثمة خيانة أو خديعة للشعب من جانب زعمائه وقادته ، وأنه لم يكن ثمة سوى حرص يقتضيه الموقف والظروف .

سار أبو القاسم عبد الملك إلى ملك قشتالة ليؤدي مهمته الأثيمة ، فاستقبله فرديناند بحفاوة . وندب لمفاوضته أمينه فرناندو دي فافرا ، وقائده جونزالفو دي كاردوفا وكان خبيراً بالشئون الإسلامية ، عارفاً باللغة العربية ، وجرت المفاوضات بين الفريقين بمنتهى التكتم ، أحياناً في غرناطة وأحياناً في محلة قريبة تعرف بضبيعة شريانة ، وبعد مفاوضات طويلة ، انتهى الفريقان إلى وضع معاهدة للتسليم وافق عليها الملكان ، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٤٩١ (٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ) . وتضمنت هذه الوثيقة الشهيرة ، التي قررت مصير آخر الحواضر الإسلامية

في اسبانيا ، شروطاً عديدة بلغت سبعة وستين شرطاً نذكر أهمها فيما يلي :

أن يقف القتال بين الفريقين سبعين يوماً ، فإذا لم تصل خلالها أمداد إلى المسلمين من إخوانهم في إفريقية سلمت غرناطة ، ودخلت في طاعة ملك النصارى ؛ وأن يطلق سراح جميع الأسرى النصارى بلا فدية ، ولا سيما أعياناً نص عليهم ، وأن يطلق كذلك سراح جميع الأسرى المسلمين في قشتالة والأندلس ، وأن يؤمن المسلمون في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، وأن يحتفظوا بشريعتهم وقضائهم ونظمهم ، يزاوونها تحت إشراف الحاكم النصراني ، وألا يقضى فيما بينهم سوى قضائهم ، فإذا وقع نزاع بين مسلم ونصراني ، قضت فيه محكمة مختلطة مؤلفة من قاض من كل من الملتين ؛ وأن يتمتعوا أحراراً بشعائر دينهم من الصلاة والصوم والأذان وغيرها ، وأن تبقى المساجد حرماً مصونة ، وكذلك الأوقاف تبقى على حالها ، وألا تعطى غلات أوقاف المساجد والمدارس وجهات البر إلا للمشرفين عليها ، وألا يدخل نصراني في مسجد أو دار مسلم أو يتطلع إليها من فوق الأسوار ، أو يغضب أحداً من

Prescott: ibid ; p. 295 (١)

المسلمين في شيء ؛ وألا يكلف ضيافة الأجناد النصراني ، وأن يسير المسلم في بلاد النصراني آمناً على نفسه وماله ، ولا يحمل أية علامة مميزة كما يحمل اليهود وأهل الدجن ، وألا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي ، وأن يحتفظ المسلمون بأموالهم أبد الدهر ، وأن يتصرفوا فيها لحسابهم الخاص ، وألا يدفعوا من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه لملكهم ، وأن يعفوا من الضرائب إطلاقاً مدة ثلاث سنين ، وأن يكون لهم حق الإتجار مع بلاد المغرب وقشتالة والأندلس دون مكوس غير التي يدفعها النصراني ، وأن يجوز إلى إفريقية من شاء من المسلمين ، في سفن يقدمها ملك النصراني لمدة ثلاث سنين من غير كراء ولا نفقة ؛ وبعد الثلاث سنين يسمح لهم بالجواز مع أخذ عشر ما لهم وقيمة الكراء ، وأنه يحق للمسلمين الذين هاجروا إلى بلاد المغرب أن يعودوا إلى الأندلس في ظرف ثلاث سنين ، وأن يتمتعوا بسائر الحقوق ، وألا يقهر مسلم أو مسلمة على التنصر ، وألا يقهر من أسلم على الرجوع إلى النصرانية ، ومن تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يقرر أمره ، ويمثل أمام مندوب من المسلمين وآخر من النصراني ، فاذا أبا الرجوع إلى الإسلام ترك وشأنه ؛ وأن يكون للنصرانية المتزوجة بمسلم حق اختيار دينها ؛ وألا يؤخذ مسلم بمن قتل من النصراني أيام الحرب ، ولا يرغم على رد ما سلب في تلك الفترة ؛ وأن يعامل الحكام والموظفون الذين يندبهم ملك النصراني المسلمين بالرفق والعدل ، وأن يعزلوا أو يعاقبوا إذا جاروا أو ظلموا ، وأن تسلم جميع المدافع والحصون إلى النصراني ، وأن تسلم المدينة في ظرف ستين يوماً من قرار التسليم ، وأن يصادق البابا على هذه الشروط (وهو شرط اضطر أبو عبدالله إلى التنازل عنه فيما بعد) . وأما فيما يتعلق بالسلطان أبي عبدالله محمد ، فقد اتفق على أن يغادر غرناطة إلى منطقة البشرات ، حيث يقطع ضياعا يعيش من ربعها ، وأن يكون مقره في أندلس من أعمالها في طاعة ملك قشتالة وتحت حمايته ، وكذلك اتفق على أن تقدم غرناطة خمسمائة من أعيانها كفالة بالإخلاص والطاعة (١)

تلك هي الشروط التي وضعت لتسليم غرناطة . وقد كانت بلا ريب أفضل ما يمكن الحصول عليه في مثل هذه المحنة ، لو أخلص النصراني في عهودهم ؛ وقد

(١) راجع أخبار العصر ص ٤٨ و ٥٠؛ ونمخ الطيب ج ٢ ص ٦١٥ و ٦١٦؛ وكذلك Prescott ;

ارتضاها المسلمون مترددين متوجسين ، والشك يساورهم في إخلاص أعدائهم . ولما
أنس فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم ، أعلنوا في يوم ٢٩ نوفمبر مع قسم
رسمى بالله ، أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية ، في العمل في أراضيهم
أو حيث شاءوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن
شاء منهم بالهجرة إلى المغرب . ولكن سوف نرى أن الإيمان والعهود ، لم تكن عند
ملكى النصرارى سوى ستار الخيانة والغدر ، وأن هذه الشروط الخلابية نقضت جميعاً
لأعوام قلائل من تسليم غرناطة . ولم يتردد المؤرخ الغربى نفسه في أن يصفها « بأنها
أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور » (١) . وهذا ما تنبأ به
فارس الأندلس موسى بن أبى الغسان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير .
ليوقعوا على قرار التسليم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب ، وعلى أمتهم بالفناء والحو :
عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعيول . ولكن موسى لبث وحده صامتاً
عابساً وقال : « أتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق
لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء ، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل
علينا أن نقذ غرناطة ؛ ولكن مازال ثمة بديل للنفوس النبيلة . ذلك هو موت مجيد ،
فلنمت دفاعاً عن جريأتنا وانتقاماً لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء
أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ؛ ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاتة ،
فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال إن أشرف غرناطة خافوا أن يموتوا
دفاعاً عنها » .

ثم صمت موسى ، وساد المجلس سكون الموت ، وسرح أبو عبدالله البصر
حوله ، فاذا اليأس مائل في تلك الوجوه التى أضناها الألم ، وإذا كل عزم قد غاض
في تلك القلوب الكسيرة الدامية . عندئذ صاح « الله أكبر لا إله إلا الله ، محمد
رسول الله ، ولا راد لقضاء الله . تالله لقد كتب لى أن أكون شقيماً ، وأن يذهب الملك
على يدى » . وصاحت الجماعة على أثره « الله أكبر ولا راد لقضاء الله » وكرروا
جميعاً أنها إرادة الله ولتكن ، وأنه لا مفر من قضائه ولا مهرب ، وأن شروط ملك
النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى ان اعتراضه عبث لا يجدى ،

وأن الجماعة قد أخذت فعلاً في توقيع صك التسليم، نهض مغضباً وصاح: « لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم. إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك نساتنا وبناتنا؛ وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي، والسياس والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحاق. هذا ماسوف نعاني من مصائب وعسف، وهذا ماسوف تراه على الأقل هذه النفوس الوضيعة، التي تخشى الآن الموت الشريف. أما أنا فوالله لن أراه ». ثم غادر المجلس واخترق بهو الأسود (كورة السباع) عابساً حزيناً، وجاز إلى أهباء الحمراء الخارجية، دون أن يرمق أحداً أو يفوه بكلمة، ثم ذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه، واقتعد غارب جواده المحبوب، واخترق شوارع غرناطة حتى غادرها من باب البيرة، ولم يره إنسان أو يسمع به بعد ذلك قط.

هذا ما تقولوه الرواية الغربية عن نهاية موسى بن أبي الغسان (١). ولكن مؤرخاً اسبانياً قديماً هو القس أنطونيو أجابيدا يحاول أن يلقى ضياء على مصيره، فيقول إن سرية من الفرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر، التقت في ذلك المساء بعينه، على ضفة نهر « شنيل » بفارس مسلم قد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه، وكان مغلقاً خوذته شاهراً رمحه، وكان جواده غارقاً مثله في رداء من الصلب. فلما رأوه مقبلاً عليهم طلبوا إليه أن يقف وأن يعرف بنفسه، فلم يجب الفارس المسلم، ولكنه وثب إلى وسطهم وطعن أحدهم برمحه وانزعه عن سرجه فألقاه إلى الأرض، ثم انقض على الباقيين يشخن فيهم طعناً، وكانت ضرباته ثائرة قاتلة، وكأنه لم يشعر بما أثنخه من جراح، ولم يرد إلا أن يقتل وأن يسيل الدم، وكأنه إنما يقاتل للانتقام فقط، وكأنما يتوق إلى أن يقتل دون أن يعيش لينعم بظفره. وهكذا لبث يبطش بالفرسان النصارى حتى أفنى معظمهم، غير أنه أصيب في النهاية بجرح خطر، ثم سقط جواده من تحته بطعنة أخرى، فسقط إلى الأرض، ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره، وأخذ يناضل عن نفسه. فلما رأى أن قواه قد نضبت، ولم يرد أن يقع أسيراً في يد خصومه

(١) هذه هي رواية كوندى فيما نقل عن مصادر عربية غير معروفة (الترجمة الانجليزية .

ارتد إلى ماورائه بوثة أخيرة ، وألقى بنفسه إلى مياه النهر ، فابتلعتة لفوره ، ودفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق .

يقول الراوية المذكور ، إن هذا الفارس المثلث هو موسى بن أبي الغسان ، وإن بعض العرب المنتصرين في المعسكر الإسباني ، عرفوا جواده المقتول ، وهي رواية لا بأس بها ، غير أن الحقيقة لم تعرف قط (١) .

وما كادت أنباء التسليم تزداع حتى عم الحزن والجزع ربوع غرناطة ، واضطرم سواد الشعب بأساً وسخطاً على قاداته ، ولا سيما أبي عبد الله الذي اعتبره مصدر كل مصائبه ومحنه ، وكاد السخط يتفاقم إلى الهياج والثورة . لهذا رأى أبو عبد الله والجماعة ، أن يعجل بالتسليم حرصاً على سلامة المدينة وسلامة الزعماء ، فلا ينتظر السبعين يوماً التي نصت عليها المعاهدة . وفي يوم ٢٠ ديسمبر أرسل أبو عبد الله وزيره يوسف ابن كماشه إلى فرديناند مع أربعائة من الرهائن من الوجوه والأعيان ، تنفيذاً لنص المعاهدة ، وليعرب له عن حسن نية مليكه واستعداده ، كما حمل إليه هدية تتألف من سيف ملوكي وجوادين عربيين مسرجين . واتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة في الثاني من يناير سنة ١٤٩٢ (الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ) أي لتسع وثلاثين يوماً فقط من توقيع عهد التسليم (٢) .

ففي صباح هذا اليوم كان المعسكر النصراني يموج بالضجيج والابتهاج ، ولم يشأ فرديناند أن يسير إلى الحاضرة الإسلامية بنفسه ، قبل التحقق من خضوعها

(١) راجع هذه الرواية في : Irving : Conquest of Granada; Ch. 97

(٢) تملط معظم الروايات الإسلامية بين تاريخ توقيع المسلمين عهد تسليم غرناطة ، وبين تاريخ استيلاء النصارى الفعلي عليها . وهي تضع هذا التاريخ في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) (أخبار العصر ص ٥٠؛ وفتح الطيب ج ٢ ص ٦١٥؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٥) . والواقع أن عهد التسليم وقع كما رأينا في ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ) وهو يعتبر تاريخ سقوط غرناطة الرسمي في يد النصارى وذلك بعد تخلي المسلمين عن الدفاع عنها ؛ ولم نجد بين الروايات الإسلامية سوى رواية واحدة هي رواية الوادي التي تتفق مع الرواية النصرانية في هذا التفريق فهو يقول ان استيلاء النصارى على غرناطة وقع في المحرم سنة ٨٩٧ هـ ، وهو تاريخ توقيع عهد التسليم (راجع أزهار الرياض ص ٦١) .

الثام ، واستتباب الأمن والسلامة فيها ، فسير إليها قوة كبيرة من الجند وعلى رأسها المطران مندوسا ليحتل قصر الحمراء ، وليمهد الطريق لمقدم الركب الملكي ، وانتظر فرديناند على مقربة من المدينة ، ومن حوله أكابر الفرسان والخاصة في ثيابهم الزاهية ؛ وكانت الملكة إيزابيلا تنتظر مع حاشيتها على قيد مسافة أخرى .

ودخل الجند القشتاليون مدينة غرناطة من طريق منحرفة ، من بابها الذي يسمى اليوم Los Molinos . وكانت أبهاء الحمراء وأفنيتها الكبيرة ، قد أخليت استعداداً لهذا اليوم . وما كاد النصرى يجوزون إلى داخل القصر الإسلامى المنيف ، حتى رفعوا فوق برجه الأعلى ، وهو المسمى برج المراقبة Torre de la Vela صليباً فضياً كبيراً ، هو الذى كان يحمله الملك فرديناند أثناء حرب غرناطة ، كما رفعوا إلى جانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب ، وأعلن من فوق البرج أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكين . ثم انطلقت فرقة الرهبان الملكية ترتل الصلاة . وعلى أثر ذلك سار الموكب الملكى إلى المدينة ، وقد حف الكبراء بالملك والملكة . ودخل فرديناند وإيزابيلا قصر الحمراء ظافرين ، وكل ما هنالك يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب التي شهرتها اسبانيا النصرانية على الأمة الأندلسية ، وعلى الإسلام فى اسبانيا .

وتصف لنا الرواية الإسلامية المعاصرة ، دخول ملك قشتالة مدينة غرناطة ، على النحو الآتى :

« فلما كان اليوم الثانى لربيع الأول عام سبعة وتسعين وثمانمائة (٢ يناير سنة ١٤٩٢) أقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد ، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام هو ببقية الجيوش خارج البلد ، لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد حين وقع الإتفاق على ما ذكر ، رهوناً من أهل البلد ليطمئن بذلك ، فأعطوا خمسمائة رجل منهم ، وأقعدهم بمحملته . فلما اطمأن من أهل البلد ، ولم ير منهم غدرًا ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير وبقى هو خارج البلد ثم إن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتين ، ومؤمنين فى أموالهم وأنفسهم مكرمين . وأقبل فى جيوشه حين اطمأن ، فدخل مدينة الحمراء فى بعض خواصه ، وبقى الجند خارج البلد ، وبقى يتنزه فى الحمراء فى القصور والمنارة المشيدة إلى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار

إلى محلته . فن غد أخذ في بناء الحمراء وتشييدها ، وتحصينها ، وإصلاح شأنها ،
وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد إلى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحلته ، فلم يزل
كذلك إلى إن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ، ودار فيه في نفر
من قومه وحشمه » (١) .

وهكذا اختتمت المأساة الأندلسية ، واستولى النصارى على غرناطة آخر الحواضر
الإسلامية في اسبانيا ، ونفق علم النصرانية ظافراً فوق صرح الإسلام المغلوب ،
وانتهت بذلك دولة الإسلام بالأندلس ، وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المحيطة
المؤثرة من تاريخ الإسلام ، وقضى على الحضارة الأندلسية الباهرة ، وآدابها وعلومها
وفنونها ، وكل ذلك التراث الشامخ ، بالفناء والمحو .

شهد المسلمون احتلال العدو الظافر لحاضرهم ودار ملكهم ، وموطن آبائهم
وأجدادهم ، وقلوبهم تتفطر حزناً وأسى . على أن هذه المناظر المحزنة ، كانت تحجب
مأساة أليمة أخرى ، تلك هي مأساة الملك التعس أبي عبدالله آخر ملوك بني الأحمر
وآخر ملوك الإسلام بالأندلس .

فقد قضت معاهدة التسليم كما رأينا ، أن يغادر أبو عبدالله غرناطة مع أسرته
إلى البشرات ، وأن يحكم مواضع في تلك المنطقة ، باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ،
وأن يكون مقره في بلدة أندَرَش . فلما اقترب اليوم المروع — يوم التسليم — بادر
أبو عبدالله بالرحيل مع أسرته وخاصته وحشمه . وفي نفس اليوم الذي دخل فيه
النصارى مدينة غرناطة ، في اليوم الثاني من يناير سنة ١٤٩٢ م ، غادر أبو عبدالله
قصره وموطن عزه ومجد آبائه ، إلى الأبد ، في مناظر تثير الأسى والشجن .

ففي فجر ذلك اليوم ، كان زنين البكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه ،
وكانت الحاشية منهمة في حزم أمتعة الملك المخلوع وآله ، وقد ساد الوجوم كل
هحيا ، واحتبست الزفرات في الصدور . وما كادت تباشير الصباح تبدو ، حتى غادر
القصر ، ركب قائم مؤثر هو ركب الملك المنفي ، يحمل أمواله وأمتعته ، ومن ورائه
أهله وصحبه القلائل ، وحوله كوكبة من الفرسان المخلصين . وكانت أمه الأميرة

(١) أخبار العصر ص ٥٠ و ٥١ .

عائشة تمتطى صهوة جوادها ، يشع الحزن من محياها الوقور ، ولكن مريمه زوج
السلطان وباقي السيدات ، كن يرسلن الزفرات العميقة والدموع السخينة . واخترق
الركب غرناطة في صمت البكور وسره ؛ وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة
إلى الأبد ، ضج الحراس بالبكاء لرؤية ذلك المنظر المؤلم ؛ ثم اتجه الركب صوب نهر
شنيل في طريق البشرات .

وليس أبلغ في وصف هذه المناظر المؤسفة من قول شوقي طيب الله ثراه : (١)

مشت الحادثات في غرف الحمم	راء مشى النعش في دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت	سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تحلت الخيل عنها	واستراحت من احتراس وعس
ومغارة على الليالي وضاء	لم تجد للعشى تكرار مس

آخر العهد بالجزيرة كانت	بعد عرك من الزمان وضرس
فبناها تقول راية جيش	باد بالأمس بين أسر وحس
ومفاتيحها مقاليد ملك	باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم في كتائب صم	عن حفاظ كموكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشا	وكانت تحت آبائهم هي العرش أمس

* * *

وكان قد تقرر اللقاء في صباح ذلك اليوم بين أبي عبد الله وملك قشتالة .
فخرج أبو عبد الله من باب الحمراء المسمى باب الطباق السبع Siete Suelos في طريقه
إلى لقاء عدوه الظافر ، وسيده الحديد ، في نفر من الفرسان والخاصة . فاستقبله
فرديناند بترحاب وحفاوة في محلته على ضفة نهر شنيل . وتصف الرواية هذا المنظر
المؤثر فتقول إن أبا عبد الله حين لمح فرديناند هم بترك جواده ، ولكن فرديناند بادر
بمنعه وعانقه بعطف ومودة . ثم قدم إليه أبو عبد الله مفاتيح الحمراء قائلا « إن هذه
المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في اسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سيد
تراثنا وديارنا وأشخاصنا . وهكذا قضى الله ، فكن في ظفرك رحما عادلا » . وسار

(١) من قصيدته السينية الأندلسية الشهيرة ، التي ينحو فيها نحو البحترى في سينية .

أبو عبدالله بعد ذلك صحبة فرديناند ، إلى حيث كانت الملكة إيزابيلا ، فقدم إليها تحياته وطاعته . ثم ارتد إلى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته . وهنا تقول الرواية إن أبا عبدالله أشرف أثناء مسيره في شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة . فوقف يسرح بصره لآخر مرة في هاتيك الربوع العزيزة التي ترعرع فيها ، وشهدت مواطن عزه وسلطانه ، فأنهمر في الحال دمه ، وأجهش بالبكاء . فصاحت به أمه عائشة : « أجل فلتبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » . وتعرف الرواية الإسبانية تلك الأكمة التي كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن باسم شعري موثر هو « زفرة العربي الأخيرة » El ultimo Sospiro del Moro ، وما تزال قائمة معروفة حتى اليوم ، يعينها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول .

ثم تقول الرواية أيضاً إن باب الحمراء الذي خرج منه أبو عبدالله لآخر مرة ، قد سد عقب خروجه برجاء منه إلى ملك قشتالة ، وبني مكانه ، حتى لا يجوزه من بعده إنسان (١) . وما زالت الرواية تعين لنا مكان هذا الباب بين الأطلال الدارسة يجوار أحد الأبراج .

* * *

وقد كان لمحنة الأندلس المؤلمة ونهايتها المحزنة ، وقع عميق في جنبات العالم الإسلامي ، ولا سيما في أمم المغرب ، في الضفة الأخرى من البحر . غير أن هذه المحنة الغامرة لم تثر وحى الشعر ، كما أثاره من قبل سقوط الثغور والقواعد الأندلسية ، أيام أن كان للدولة الإسلامية بقية من القوة والأمل . ذلك أن دولة الشعر الأندلسي كانت قد أنهارت منذ بعيد ، وتحطمت الأقلام ، وعقدت المحنة الغامرة كل لسان . ومع ذلك فقد صدرت في رثاء الأندلس نفثات قوية مؤثرة تهب أوتار القلوب ، معظمها من الضفة الأخرى من البحر من شعراء المغرب .

(١) Prescott: *ibid*; p. 298 & 299 وكذلك: Irving: *Conquest of Granada*; Ch. 97

ويذكر إيرفينج في خاتمة كتابه أنه توجد في متحف جنة العريف (جنراليف) المجاور لقصر الحمراء صورة لأبي عبد الله مثله بوجه وسيم ولون جميل وشعر أصفر ، ويرتدى ثوباً أصفر يظلمه حرير أسود ، وقلنسوة من الحرير الأسود يعلوها التاج ، ويوجد في متحف مدريد الحرابي ثوبان مدرعان يقال لهما كانا لأبي عبد الله ويبدو من حجميهما أن أبا عبد الله كان كبير القوي البنية ؛ ويخصص إيرفينج في كتابه *Tales of the Alhambra* فصلاً للذكريات الأخيرة الخاصة بأبي عبد الله .

ومن أشهر المراثي التي نظمت في رثاء الأندلس عتب المحنة بقليل : رثاء طويل مؤثر لشاعر أندلسي مجهول يبدو أنه عاصر حوادث المحنة من بدايتها حتى نهايتها . وإليك مقتطفات من تلك المرثية المشجية التي رتبت وفقاً للوقائع والتواريخ :

أحقاً خبا من جور زدة نورها وقد كسفت بعد الشמוש بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازلها ذات العلا وقصورها
فيا ساكني تلك الديار كريمة سقى عهدكم مزن يصوب نيمرها
أحقاً أخلائي القضاء أبادكم ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يصادى وفرقة لدى عرصات الحشر يأتى سفيرها

* * *

فواحسرتا كم من مساجد حولت وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وواأسفا كم من صوامع أوحشت وقد كان معتاد الأذان يزورها
فحراها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة إذا أسفرت يسبي العقول سفورها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة وقد هتكت بالرغم منها ستورها (١)
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة تود لو انضمت عليها قبورها
لها روعة من وقعة الين دائم أساها وعين لا يكف هديرها
وكم من صغير في حجر أمه فأكبادها حراء لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها

* * *

لأندلس ارتجت لها وتضعضت وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ملابس حسن كان يزهو حبورها
فأحياؤها تبدى الأسى وجمادها يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فخالقة الحسناء ثكلى أسيفة قد استفرغت ذبحاً وقتلا حجورها

(١) يكرر الشاعر في هذه الأبيات نفس المعاني التي وردت في مرثية أبي البقاء الرندي الشهيرة .

وجزت نواصيها وشلت يمينها
وقد كانت الغربية الحسن التي
وبلش قطت رجلها بيمينها
وضحت على تلك الثنيات حجرها
وبالله إن جئت المنكب فاعتبر
ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم
بدار العلا حيث الصفات كأنها
محل قرار الملك غرناطة التي
تري الأسى أعلامها وهي خشع
ومأمومها ساهى الحجى وأمامها
وبسطة ذات البسط ما شعرت بما
وما أنس لا أنس المرية إنها
منازل آبائي الكرام ومنشئ

وبدل الويل المين سرورها
تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
ومن سريان الداء بان قطورها
فأفقر مغناها وطاشت حجورها
فقد خف ناذيها وجف نصيرها
قد ارتج باديهما وضج حضورها
من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
هي الحضرة العليا زهتها زهورها
ومنبرها مستعبر وسريرها
وزائرها في مآتم ومزورها
دهاها وأنى يستقيم شعورها
قتيلة أوجال أزيل عذارها
وأولى أوطان غذاني خيرها (١)

ثم يشير الشاعر بعد هذا الترتيب التاريخي لسقوط قواعد الأندلس، إلى محاولة الإسبان تنصير المسلمين لأول مرة وما ترتب على ذلك من قيام الثورة في بعض الجهات :

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا
علامات أخذ مالنا قبل بها
فلا تتمحى إلا بمحو أصولها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة
أصابت منار الدين فأنهد ركنه
إلا واستعدوا للجهاد عزائماً
بأنفس صدق موقنات بأنها
تروم إلى دار السلام عرائساً

جيوش كموج هبت دبورها
جنايات أخذ قد جناها مثيرها
ولا تتجلى حتى تخط أصولها
وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
وزعزع من أكتافه مستطيرها
يلوح على ليل الوغى مستنيرها
إلى الله من تحت السيوف مصيرها
على الله في ذلك النعم مهورها (٢)

(١) يبدو من هذا البيت أن الشاعر كان من أهل الرية ونشأ بها .

(٢) نشر هذه المرثية وهي في أكثر من مائة بيت أحد أدباء الجزائر ، مقرونة بترجمة فرنسية

تحت عنوان : Une Élégie andalouse sur la guerre de Grenade : وذكر الناشر وهو

هذا وقد صدرت عن أدباء المغرب في الضفة الأخرى من البحر ، طائفة كبيرة من المرائي البليغة ، في نعي الأندلس والإشادة بفضائلها ، وفداحة الخطب فيها . وكان شعراء المغرب لقربهم من مسرح الحوادث ، ووقوفهم على كثير من الأخبار والسير المفجعة ، عن إخوانهم بالأندلس ، أشد من غيرهم تأثراً بالحنة ، وأكثرهم إفاضة في نذب ويلاتها (١) .

== ضوبلح محمد، أنه نقلها عن مخطوط محفوظ بمكتبة الجزائر ومؤرخ في شعبان سنة ٨٩٧ هـ (يونيه سنة ١٤٩٢ م) أعنى بعد سقوط غرناطة ببضعة أشهر . والظاهر أنه حينما وضعت هذه القصيدة كان الإسبان قد بدأوا محاربتهم الأولى لتنصير المسلمين .

(١) نقل إلينا القرى في أزهار الرياض بعض هذه المرائي المغربية، ومن ذلك قصيدة أبي العباس أحمد بن محمد الصنهاجي المشهور بالدقون (ج ١ ص ١٠٢ وما بعدها) .

الفصل الرابع

ختم المأساة

وقع محنة الأندلس في العالم الإسلامي . سفارة فرديناند الى بلاط مصر .
صدي المأساة في المغرب . موقف السلطان أبي عبد الله بعد التسليم . عزمه
على الجواز الى المغرب . نزوله عن حقوقه لفرديناند . جوازه الى فاس والتجاؤه
الى ملكها . دفاع أبي عبد الله المسمى بالروض العاطر الأنفاس . الوزير العقيلي
كاتب هذا الدفاع . بعض ماورد في الدفاع من المنظوم . بعض ماورد فيه من
المنثور . اعتذار أبي عبد الله ودفعه لتهمة التفريط والخيانة . استعراض لموقفه
وتصرفاته . معترك الفتنة الذي أودى بمملكة غرناطة . تبعة أبي عبد الله .
حياته بمدينة فاس . وفاته وعقبه . حمراء غرناطة . تاريخها وأوصافها .
ما بقى من أبينتها وابنائها . تشويه الأسباب لجمالها الأثري . روعتها وتراثها
القصصي . تغدو مسرحاً لحوادث غرناطة . ما يدور حولها من الأساطير . بهو
الأسود ومأساة بني سراج . الأساطير الغرامية . أصل هذه الأساطير ومغزاها .
قصيدة شوقى في رثاء الحمراء .

لم يكن سقوط غرناطة في يد النصارى حادثاً فجائياً ، بل كان بالعكس نتيجة
طبيعية ، لما تقدمه من الحوادث الأندلسية ، وكان خاتمة محتومة لاستشهاد طويل
الأمم . ومع ذلك فقد كان لسقوط غرناطة أو بعبارة أخرى لانهاء دولة الإسلام
في الأندلس ، وقع عميق في الضفة الأخرى من البحر ، في أمم المغرب التي لبثت
عصوراً ترتبط بالأندلس بأوثق الروابط ، وفي سائر أنحاء العالم الإسلامي .

وكان للحدث أيضاً وقعه العميق في سائر الأمم النصرانية ؛ فقد ابتهجت له
أيما ابتهاج ، واعتبرته من بعض الوجوه عوضاً لسقوط قسطنطينية في قبضة الإسلام
قبل ذلك بنحو نصف قرن . وُخلدت ذكرى الحادث في رومه باقامة قداس أعظم ،
واستمر ابتهاج الشعب أياماً . ورحبت سائر قصور أوروبا بالنبأ ، وأقامت لإحيائه
الحفلات الدينية والمدنية ، منوهة بفضل فرديناند وإيزابيلا في تحقيق هذه الأمنية
العظيمة (١) .

(١) Prescott : Ferd. & Isabella p. 299 والهامش .

وقد كانت الأندلس تثير منذ البداية جزع الأمم الإسلامية وعطفها . ولكن الأمم الإسلامية لم تستطع أن تبذل أى مجهود عملي لإنقاذ الأندلس من قدرها المحتوم ، ولم يتحقق من جهة أخرى ما كانت ترجوه مصر بتدخلها السياسي لدى ملوك النصرانية من أثر ملطف في سير الحوادث الأندلسية . وقد كانت مصر بالرغم من بعدها تتبع أحوال الأندلس باهتمام خاص ، لم ينتقص منه سوى اضطراب شئونها الداخلية في ذلك الحين . ولما استولى النصارى على غرناطة ، وحققت بذلك أمانة إسبانيا التاريخية كاملة شاملة ، لم ينس ملك قشتالة ماجاء في سفارة سلطان مصر من وعيد بأن ينكل برعاياه النصارى ، ولم يقنع بالخطاب الذي وجهه إليه على يد سفيره الراهبين . فلما استقرت الأمور وخضعت سائر الأراضي الإسلامية ، رأى فرديناند أن يسعى إلى إقناع سلطان مصر ، بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية والرفق في ظل الحكم الجديد ، فأوفد إلى بلاط القاهرة سفارة جديدة . وكان سفيره إلى السلطان هو : بيتر مارتييري (١) وهو من أعلام الكتاب والمؤرخين في ذلك العصر . فوصل إلى القاهرة سنة ١٥٠١م (٥٩٠٦هـ) . وكان سلطان مصر في ذلك الحين الملك الأشرف جان بلاط ، فأدى مارتييري سفارته بكياسة وبراعة ، وقدم إلى السلطان شهادات من حكام الجزائر ، تفيد أن المسلمين الذين آثروا الهجرة من الأندلس ، قد نقلوا سالمين إلى الجزائر ، وأحسن معاملتهم ، واستطاع بذلك أن يقنع السلطان بأن يعفى النصارى من طائفة من المغارم والفروض (٢) .

وهكذا كان الصدى الأليم الذي أثارته حوادث الأندلس في الأمم الإسلامية يخبوشيناً فشيئاً . ولم تمض أعوام قلائل حتى أسدل عليها في المشرق حجاب من النسيان . ولكن ذكرى الأندلس وحوادثها ، لبثت حية قوية في عدوة المغرب عصوراً أخرى . ذلك أن المأساة الأندلسية لم تنته بسقوط غرناطة ، بل كان عليها أن تجوز ثمة فصولاً مفاجئة أخرى ، قبل أن تصل إلى نهايتها . وكانت هذه الفواجع أول ماتلقى صداها العميق في الضفة الأخرى من البحر ، حيث كانت العدو دائماً ملاذ الضحايا الأخير

(١) بيتر مارتييري Pietro Martiri إيطالي ولد سنة ١٤٥٥ وتوفي سنة ١٥٢٥ . وكان حبراً وكاتباً كبيراً . شهد حرب غرناطة الأخيرة إلى جانب فرديناند . وكتب عن سفارته إلى مصر كتاباً خاصاً . وله مؤلفات أخرى في تاريخ إسبانيا في ذلك العصر .

ولنبداً بالحديث عن مصير الملك المنكود أبي عبدالله محمد بن علي آخر ملوك الأندلس ، فقد غادر غرناطة ساعة استيلاء النصارى عليها ، مع آله وصحبه إلى بلدة أندرش في منطقة البشرات على مقربة من المرية ليقيم فيها في رعاية ملك اسبانيا وتحت حمايته ، حسبما قضت معاهدة التسليم . بيد أنه لم تمض أشهر قلائل على إقامته في مقره الجديد ، حتى أدرك كما أدرك عمه مولاي الزغل من قبل ، أن تلك الحياة الذليلة لا تتحلق به ولا تجمل ، وأنه يستحيل عليه البقاء في هذا الوضع المؤلم كعامل ملك قشتالة . وكان فرديناند من جانبه ، ينظر إلى وجوده بعين الريب ، ويخشى أن يكون مثار القلاقل والفتن . وهكذا عول أبو عبدالله أن يحدو حدو عمه في الجواز إلى إفريقية ، ويقال إن وزيره يوسف بن كماشة هو الذي أقنعه بوجوب الجواز ؛ وقام الوزير بمناوضة فرديناند في تحقيق رغبة الملك المخلوع ؛ ويقال من جهة أخرى إن فرديناند هو الذي أمره بالجواز ؛ وعلى أي حال فقد ارتضى أبو عبد الله أن ينزل عن حقوقه الأخيرة لملك قشتالة نظير مبلغ ثمانين ألف دوقية من الذهب . وغادر أبو عبد الله الوطن القديم في عمر من الحسرات والأسى ، وجاز البحر بأسرته وأمواله من ثغر المرية إلى المغرب الأقصى ، في سفن أعدت لجوازه (سنة ١٤٩٣م) وركب معه كثير من أكابر المسلمين الذين آثروا الرحيل . ونزل أولاً في مليلة ثم قصد إلى فاس واستقر بها (١) . وتقدم إلى ملكها السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ ، زعيم بني واطاس (٢) الذين خلفوا بني مرين في الملك مستجيراً به ، مستظلاً بلوائه ورعايته ، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يده ، متبرئاً مما نسب إليه من إثم وتفريط في حق الوطن والدين .

وهذا الدفاع الشهير الذي يقدمه إلينا أبو عبد الله عن موقفه وتصرفه ، هو قطعة رائعة من الفصاحة السياسية والبيان الساحر ، وهو يدل في روحه وقوته وروعته ، على فداحة التبعة التي شعر آخر ملوك الأندلس أنه يحملها أمام الله والتاريخ ، وأمام

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٧ ، ٧١ .

(٢) هم بطون من بطون بني مرين وقد استولوا على ملك المغرب منذ سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١م)

منذ انقراض ملك بني مرين .

الأهم الإسلامية والأجيال القادمة كلها ، وعلى أن هذا الأمير المنكود لم يرد أن ينحدر إلى غمر النسيان والعدم ، محكوماً عليه دون أن يبسط للتاريخ قضيته ، فيصدر حكمه فيها على ضوء أقواله ودفاعه .

وقد كتب هذا الدفاع الشهير الفريد في التاريخ الإسلامي ، على لسان أبي عبدالله ، وزيره وكتابه ، محمد بن عبد الله العربي العقيلي ، في رسالة مستفيضة قوية مؤثرة ، موجهة إلى ملك فاس ، وجعل لها عنواناً شعرياً مشجياً هو : « الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » . وقد كان العربي من أعلام البلاغة في هذا العصر .

ولما عول أبو عبدالله على الرحيل إلى المغرب جاز البحر مع أميره ، وجازت قبل سقوط غرناطة وبعده إلى المغرب جمهرة كبيرة من أقطاب العلم والأدب ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى (١) . وللعربي آثار في النظم والنثر ، تبدو لروعتها كأنها نفثات أخيرة لأدب الأندلس المحتضرة ، وكان دفاع أبي عبدالله من أبدعها وأروعها .

ونقل إلينا المقرئ مؤرخ الأندلس هذا الدفاع الشهير بنصه في مؤلفه الجامع « نفح الطيب » ، وكذلك في كتابه « أزهار الرياض » (٢) . وقد قدم له كاتبه بعد الديباجة بقصيدة رائعة جاء في مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم
بك استجرنا وأنت نعم الجار لمن
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً
حكم من الله حتم لا مرد له
وهي الليالي وقاك الله صولتها
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول
فأيقظتنا سهام للردى صيبُ
فلا تم تحت ظل الملك نومتنا
بيكى عليه الذى كان يعرفه
رعيا لما مثله يرعى من الذم
جار الزمان عليه جور منتقم
وأفزع الخطب ما يأتى على الرغم
وهل مرد لحكم منه منحتم
تصول حتى على الآساد فى الأجم
نمنا بها تحت أفنان من النعم
يُرمى بأفجع حتف من بهن رُمى
وأى ملك بظل الملك لم ينم
بأدمع مزجت أمواها بدم

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ - ٦٢٨ وأزهار الرياض ج ١ ص ٧٢ - ١٠٢ .

ومنها في التوسل والاعتذار وهو لب موضوعها :

وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت
وابسط لنا الخلق المرجو باسطه
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم
فما أطقنا دفاعاً للقضاء وما
ولا ركوباً بازعاج لسابحة
والمرء ما لم يعنه الله أضيع من
وكل ما كان غير الله يحرسه

* * *

ولا تعاتب على أشياء قد قدرت
وعدّ عما مضى إذ لا ارتجاع له
إيه حنانيك يا بن الأكرمين على
فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت
رحماك يا راحماً ينمى إلى رُحما
فكم مواقف صدق في الجهاد لنا
والسيف يخضب بالحمير من علق
ولا ترى صدر غضب غير منقصف
حتى دُهينا بدهيا لا اقتدار بها

* * *

تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا
لكن طلبنا من الأمر الذي طلبت
فخاننا عنده الجدة الخئون ومن
فاسود ما أخضر من عيش دهمته عدأً
وشئت اليبين شملاً كان منتظماً
فرب مبنئ شديد قد أناخ به
قمنا لديه أصيلاً نساأله

ولا طوت صحة منها على سقم
ولاتنا قبلنا في الأعصر الدهم
تقعده نكبات الدهر لم يقم
بالأسمر اللون أو بالأبيض الخدم
واليبين أقطع للموصول من حلم
ركب البلا فقرته أدمع الديم
أعيا جواباً وما بالربع من إرم

وما ظننا بأن نبقى إلى زمن
 لكن رضاً بالقضا الجارى وإن طويت
 ليك يا من دعانا نحو حضرته
 وأعط الأمن الذى رصت قواعده
 خليفة الله وإفك العبيد فكن
 وبين أسلافنا ما قد علمت به
 وأنت منهم كأصل نطلع غصنا أو
 وقد خطوت خطاهم فى مآثر
 وهى طويلة فى أكثر من مائة بيت ، وفيها يعطف الشاعر بعد ذلك على
 مديح ملوك فاس ، والإشادة بعلاقتهم القديمة مع بنى الأحمر ملوك غرناطة ، ومما
 يقول فى ذلك :

أهل الحفيظة يوم الروح يحفظهم
 بأس تطير شرار منه محرقة
 هم بطائفة التلث قد فتكوا
 وإن يلثمهم يوم الوغى رهج
 تضىء آراؤهم فى كل معضلة
 هذا ولو من حياء ذاب محتشم
 طابت مدائحهم إذ طابت أنفسهم

وفى مديح السلطان القائم أبى عبد الله الوطاسى قوله :
 أنسى الخلائف فى حلم وفى شرف
 فجاز معتمداً منهم ومعترضداً
 وناصر الدين فى الإقبال فاق وفى
 أفعال أعدائه معتلة أبداً
 وفى سخاء وفى علم وفى فهم
 وامتناز عن قائم منهم ومعتم
 محبة العلم أزرى بابنه الحكيم
 متى يرم جزمها بالحذف تنجزم

وبلى هذه القصيدة الطويلة دفاع أبى عبد الله المنشور ، فى أسلوب يفيض قوة
 وبياناً ، وفيه يشير أبو عبد الله إلى حوادث الأندلس ، ويعتذر عن محنته ، ويعترف
 بخطئه فى عبارات مؤثرة ، ويقول بعد الديباجة موجهاً خطابه إلى سلطان فاس :

« هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم ، وعوارف أنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم . وما الذى يقول من وجهه خجل ، وفؤاده وجل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل . بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربى ، واجترأى عليه أكثر ، واجترأى إليه أكبر ؛ اللهم لا برئى فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، لكنى مستقبل مستنيل ، مستعتب مستغفر ، وما أبرئ نفسى إن النفس لأماراة بالسوء . »

« على أنى لا أنكر عيوبى ، فأنا معدن العيوب ، ولا أجد ذنوبى فأنا جبل الذنوب ، إلى الله أشكو معجربى ويجربى وسقطائى وغطائى » .

بيد أنه يدفع عن نفسه تهم التفريط والزيف والخيانة ويقول :

« فثلى كان يفعل أمثالها ، ويحمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها ، عياداً بالله من خسران الدين ، وإيثار الجاحدين والمعتدين ، وقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . وإيم الله لو علمت شعرة فى فودى تميل إلى تلك الجهة لقلعتها ، بل لقطفت ماتحت عماتى من هامتى وقطعتها . غير أن الرعاع فى كل وقت وأوان للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان وأكثر ما تسمعه الكذب ، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله إليه منجذب ، ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار ، ورؤينا بما لا يرى به الكفار ، فضلا عن الفجار ، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو مالكم منه حفظ الجبار أكثر المكثرون ، وجهد فى تعشيرنا المتعشرون ، ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا فى سلك الملاحدة . أكفراً أيضاً كفراً ، غفراً اللهم غفراً . وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا ، فطاردنا فى سبيله عداة كانوا لنا غائطين ، فانفتق علينا فتق لم يمكننا له رتق ، وما كنا للغيب حافطين . » .

ثم يقول أبو عبدالله ، لئن كان قد نزل به القضاء فثل عرشه ، ونكس لواؤه ، ومُلك مثواه ، فهو مثل من سواه فى ذلك . ولئن كان مروعاً مصير غرناطة ومصير ملكها وأنجادها ، فانها لم تنفرد بين قواعد الإسلام بذلك المصير الحزن . ألم يقتحم التتار بغداد ، عروس الإسلام ومثوى الخلافة ، ومهد العلوم ، ويستبيحوا ذمارها وحرمها ، ويسحقوا الخلافة وكل معالمها ورسومها ؟ وماذا كانت تستطيع غرناطة

إزاء قدر محتوم ، وقضاء لا مرد له ؟ « والقضاء لا يرد ولا يصد ، ولا يغالب ولا يطالب ، والدائرات تدور ، ولا بد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيع لا مطاع ، وليس يطاع إلا المستطاع ، وللخالق القدير جلت قدرته ، في خليقته علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع » .

ثم يعطف إلى التجائه إلى ساحة السلطان بقوله : « وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً ، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقا ، ولم نفرع إلى غير بابكم المنيع الجنب ، المتفتح حين سُدت الأبواب ، ولم نلبس غير لباس نعمائكم ، حين خلفنا ما ألبسنا الملك من الأثواب . وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهبان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجنان ، ووجه الله تعالى يبقى ، وكل من عليها فان » .

ويشير أبو عبد الله إلى رفضه لما عرضه عليه ملك اسبانيا ، من الإقامة في كنفه وتحت حمايته فيقول : « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بايمانه ، ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصفر ، ولا سوغ لنا الإيمان ، الإقامة بين ظهرائي الكفر ، ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة ، وأمنا من المطالب المشاغب حمة شر لنا لاسعة » .

ثم يشير إلى أنه تلقى كذلك دعوات كريمة من المشرق للذهاب والإقامة ، ولكنه أثار الجواز إلى المغرب ، دار آبائه من قبل وملاذهم دائماً عند النوائب ، ولم يرتض سوى الانضواء إلا لذلك الجنب ، أعني بني مرين ، الذين أوصى آباؤه وأجداده بالانضواء إليهم ، وقت الخطر الداهم .

ويختتم أبو عبد الله دفاعه برثاء مؤثر للملك ومصيره فيقول : « ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً ، عن أرض أورثها من شاء من عباده ، معقباً لهم ومديلاً ، سادلاً عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولاً ، « سنة الله التي قد نخلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً » فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيراً ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، ولم نستطع عن مورده صدوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

ويعود أبو عبد الله بعد هذا الدفاع المستفيض المؤثر ، إلى الإشادة بخلال سلاطين فاس وما آثرهم ، ويقرر أنه يضع نفسه تحت حماية السلطان ورعايته «منتظماً

في سلك أوليائه ، متشرفاً بخدمة عليائه » ، ليقضى بقية عمره في كنفه مصوناً من المخاطر والضمير .

* * *

تلك خلاصة الدفاع الشهير الذي تركه آخر ملوك الأندلس للخلف من بعده . وهو دفاع حار مؤثر يذكرنا بتلك الإعتذارات الشهيرة (أبولوجيا) ، التي لجأ إليها الأقدمون في ظروف مختلفة ، لتبرير بعض المواقف والآراء . وفيه يقف أبو عبد الله موقف المذنب البرئ معاً ، فهو لا يتنصل من جميع الأخطاء ، ولكنه يتنصل من تبعة ما حدث ، ويصور نفسه قبل كل شيء ضحية القدر ، ويدفع عن نفسه بالأخص تهمة التفريط والخيانة والزيغ . فالى أى حد تتفق هذه الصورة مع الحقيقة ، ومع منطق الحوادث والظروف التي وقعت فيها المأساة ؟ لقد تبوأ أبو عبد الله عرش غرناطة لأول مرة وهو فتى في الخامسة والعشرين ، ثم عاد إلى تبوئه بعد ذلك بعدة أعوام ، وكان جلوسه في كل مرة نتيجة حرب أهلية مخربة طاحنة . وقد نشأ هذا الأمير الضعيف في بلاط منحل ، يضطرم بصنوف الدس والخصومة ، ولم تهبته تربيته وصفاته للاضطلاع بمهام الملك ، ولا سيما في مثل تلك الظروف الدقيقة ، التي كانت تجوزها مملكة محتضرة . أجل كانت الأندلس تسير إلى قدرها المحتوم قبل المأساة ببعيد ، ولم يك ثمة شك في مصير غرناطة ، بعد أن سقطت جميع القواعد الأندلسية الأخرى في يد العدو القوي الظافر ؛ ولكن ليس من شك أيضاً في أن الأواخر من ملوك غرناطة ، يحملون كثيراً من التبعة في التعجيل بوقوع المأساة . فنحن نراهم ينجحون إلى الدعة والحمول ، ويتركون شؤون الدفاع عن المملكة ، وينجحون إلى حروب أهلية يمزق فيها بعضهم بعضاً ، والعدو من ورائهم متربص ومتوثب يرقب الفرص . وقد كان هذا شأن مملكة غرناطة وشأن بني الأحمر ولاسيما منذ أوائل القرن التاسع الهجري أو أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، ومنذ عهد الأمير على أبي الحسن ، تبلغ الحرب الأهلية ذروتها الخطرة ، ويغدو مصير المملكة الإسلامية رهين رحمة القدر ، وقد شاء القدر أن يكون السلطان أبو الحسن ، وأخوه الأمير محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وولده أبو عبد الله محمد أبطال المأساة الأخيرة ، حملتهم نفس الأطماع والأهواء الخطرة ، فأنحدروا إلى معترك الحرب الأهلية ، وشغلتهم الحرب الأهلية طول الوقت

عن أن يقدرُوا حقائق الموقف ، وأن يستشعروا الخطر الداهم ، وأن يستجدعوا قواهم المشتركة لمواجهة العدو المشترك ؛ وانحدر أبو عبدالله إلى أخطر مآب هذه المعركة المميته من وسائل الإغراء والتفوق . فجنح إلى مخالفة العدو الخالد ، ولم يحجم عن أن يستعدي ملك النصارى على أبيه وعمه ، كي ينتزع الملك لنفسه ؛ فلما ظفر بعرش غرناطة بموازرة ملك قشتالة لم يكن سوى صنيعته وأسير وحيه . وكان عمه الزغل قد بسط سلطانه على الأنحاء الشرقية والجنوبية ، فلم يحجم عن مهاجمته نفس الوقت الذى هاجمه فيه ملك النصارى لينتزع منه ماتحت يده ، وكان الزغل فى الواقع بطل المعركة الأخيرة . وقد أبدى فى مقاومة العدو بسالة رائعة خللتها سير العصر ؛ ولم يشعر أبو عبدالله بفداحة خطئه إلا حينما تحول إليه حليفه الغادر ملك قشتالة بجيشه الضخم ، ليحاصر غرناطة ويضربها الضربة الأخيرة ؛ وكانت قوى غرناطة ومواردها قد بددت فى حروب أهلية عقيمة . فلم يغن دفاعها شيئاً أمام القوة القاهرة والقدر المحتوم ، فكانت النكبة ، وكانت الخاتمة المؤسفة .

أليس لنا بعد ذلك أن نحكم على آخر ملوك الأندلس ؟ إن أبا عبدالله يحمل أمام الله والتاريخ تبعة لاريب فيها . بيد أنه من الحق أيضاً أن نقول إنها ليست تبعة الحيانة أو الجريمة العمدة ، بل هى تبعة « التفريط » والخطأ وعدم التبصر فى العواقب .

* * *

استقر أبو عبدالله بعد جوازه فى فاس فى ظل بنى وِطَّاس ، وشيد بها قصوراً على طراز الأندلس رآها وتجول فيها المقرئ مؤرخ الأندلس بعد ذلك بنحو قرن وثلاث (١٠٣٧هـ - ١٦٢٨م) (١) . ويروى أنه لما نزل أبو عبدالله وصحبه إلى مدينة فاس ، أصابت الناس بها شدة عظيمة من الجوع والغلاء والوباء ، حتى غادرها كثير من أهلها ورجع بعض الأندلسيين إلى بلادهم ، وتقاعس كثير منهم عن الجواز إلى المغرب خوفاً الشدة والفاقة (٢) . وعاش الملك المخلوع فى منفاه طويلاً يجرع كأسه المرة حتى الثمالة ، ويتقلب فى غمر الحسرات والذكريات المفجعة ، ويشهد خلال هذه الفترة المؤلمة ، جهود السياسة الإسبانية فى سحق الإسلام بالأندلس ، وسحق مدينته وكل

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٨ .

وسومه وآثاره ، ويشهد يد الفناء والحجو ، تعمل لاستئصال هذا الشعب الأندلسي النبيل
التالد ، من الأرض التي لبث يرعاها ثمانية قرون ، وينثر في أرجائها فيض عبقريته
وروائع حضارته . وتوفى أبو عبدالله بعد المأساة بنحو أربعين عاماً في سنة ٩٤٠ هـ
(١٥٣٤ م) ودفن بفاس ، وترك ولدين هما أحمد ويوسف ، واستمر عقبه متصلاً
معروفاً بفاس مدى أحقاب ، ولكنهم انحدروا قبل بعيد إلى هاوية البؤس والفاقة .
ويذكر لنا المقرئ أنه رآهم سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٨ م) معدمين يعيشون من أموال
الصدقات (١) . وفي بعض الروايات الإسبانية أن أبا عبدالله توفى قتيلاً في موقعة
نشبت بين السلطان أحمد الوطاسي وبنى سعد الخوارج عليه في وادي أبي عقبة وقاتل
فيها أبو عبدالله إلى جانب أصدقائه بنى وطاس وذلك في سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م) (٢) .
بيد أنها رواية ظاهرة الضعف لأن أبا عبدالله يكون في هذا الوقت قد جاوز السبعين ،
ومن الصعب أن نتصور أنه يخوض مثل هذه المعارك الطاحنة بعد أن هدمه الإغناء
والحجرم ، هذا إلى أن الرواية الإسلامية في هذا الموطن أدعى إلى الترجيح والثقة .
ولم نعر على تاريخ وفاة الأميرة الباسلة عائشة الحرة والدة أبي عبدالله ، ولا بد
أنها توفيت قبله بمدة طويلة .

ويعرف أبو عبدالله آخر ملوك الأندلس في الرواية الإسبانية بمحمد الحادي
عشر ، وبالملك الصغير El Rey chico تميزاً له من عمه أبي عبدالله الزغل ، ويلقب أيضاً
بالزغبى ومعناها المنكود أو عائر الجذ ، تنويهاً بما أصاب الإسلام على يديه من
الخطوب والمحن (٣) .

(١) نصح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ . وهنا يذكر المقرئ أن أبا عبدالله توفى في سنة ٩٤٠ هـ
ويتابعه السلاوى في الاستقصاء (ج ٢ ص ١٦٨) ولكنه يعود في أزهار الرياض (ج ١ ص ٦٨)
فيذكر أنه توفى في سنة ٩٢٤ هـ ، وهي رواية محرفة فيما يرجح . وفي أقوال التواريخ الغريسة
ما يرجح الرواية الأولى .

(٢) راجع Irving : Conquest of Granada في الملحق الخاص بأبي عبدالله ؛ وكذلك
الاستقصاء للسلاوى ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣) الزغبى مصغر « زغبى » ، ومعناها في لغة أهل غرناطة : المنكود أو التعميس . ومعناها
وفقاً لمارمول « التعمس الصغير » « الرجل المسكين » Le petit Malheureux : Le pauvre Homme
(راجع دوزى . Supp. aux Dict. arabes p. 594) .

ولابد لنا قبل أن نختتم الكلام على تلك الصفحة المؤسسية من تاريخ الأندلس ، أن نتحدث عن ذلك الصرح الخالد ، الذي ما زال رمزاً حياً لتلك المأساة المفجعة التي اختتمت بين جدران الصامتة ، واقترنت باسمه إلى الأبد ، ونعني بذلك حمراء غرناطة . ذلك الصرح الذي يمثل في تاريخ الأندلس عصراً بأسره ، وحضارة بأسرها ، والذي ما يزال يثير بجلاله وروعته كثيراً من المواقف والذكريات الخالدة .

لبثت حمراء غرناطة زهاء قرنين عنواناً لمجد الإسلام ودولته ، وملاذاً ساطعاً للحضارة الأندلسية ، التي كانت أنوارها الباهرة تشع في أرجاء أوروبا . خلال حلك العصور الوسطى ، فلما أشرفت الدولة الإسلامية على الفناء ، غدت حمراء غرناطة قبرها الأخير ، وطوت بين جدرانها صفحاتها المحيطة . وما زالت الحمراء وساحاتها الشاسعة ، وأبوابها الفخمة ، وأبراجها الشاهقة ، منذ أربعة قرون عنواناً للمجد الذاهب ، وشاهداً صامتاً لجليل الحوادث والذكريات .

وتاريخ الحمراء هو تاريخ الصروح والهياكل العظيمة التي تتبوأ مقامها الراسخ في تاريخ الدول التي شادتها ، والعصور التي شهدتها ، فهو جزء لا ينفصل من تاريخ الأندلس ، كما أن قصر الفاتيك كان جزء لا ينفصل من تاريخ البابويه . وما تاريخ الحمراء وسير بناتها وساداتها ، إلا تاريخ مملكة غرناطة ، وما الحمراء ذاتها ، وما تعرضه من روعة في الصنع والإنشاء ، وما تحوى من بدائع الفن والزخرف ، إلا صفحة جامعة من تاريخ الحضارة الأندلسية ، فالسائح المتأمل في جنبات هذا الصرح الخالد ، لا يسعه إلا أن يرتد بذهنه إلى الماضي البعيد ، فيذكر قصة أمه مجيدة كانت سيدة هذه الأرض والمهاد ، وحضارة زاهرة كانت تفيض على هذه الأرض والمهاد ، عظيمة ونعماء ونوراً .

وللحمراء تاريخ قديم يرجع إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أيام الدولة الإسلامية الكبرى . وقد كانت يومئذ قلعة متواضعة . وتحدث الرواية الأندلسية المعاصرة عن قلعة بنيت على ضفة نهر حدارة اليسرى ، تسمى قلعة الحمراء ، وتذكرها بالأخص أيام الحروب الأهلية التي اضطرت في منطقة غرناطة ، بين المولدين والبطون العربية ؛ ومما قاله شاعر من شعراء ذلك العصر في الإشارة إلى قلعة الحمراء :

منازلهم مقهم قفارية قسوع تجارى السفا فيها الرياح الزعازع
وفى القلعة الحمراء تدبير زيغهم وفيها عليهم تستدير المواقع
ولما تولى باديس بن حبوس زعيم البربر حكم غرناطة، واتخذها قاعدة لملكه
فى أوائل القرن الخامس الهجرى، أنشأ سوراً ضخماً حول التل الذى تقع عليه القلعة
المذكورة، وأنشأ فى داخله قصبه (قلعة) اتخذها مقاماً له، ومركزاً لحكومته،
وسميت بالقلعة الحمراء، تجديدأ لاسمها القديم. ثم زيد فى القلعة، واتسع نطاقها
بمضى الزمن، وغدت حصن غرناطة وقصبتها أو بعارة أخرى معقلها الرئيسى.
ولما غلب محمد بن الأحمر على غرناطة فى سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨م) أنشأ فوق هذا
الموقع القديم، وداخل الأسوار، حصنه أو قصره الذى أطلق عليه اسم الحمراء،
وجلب له الماء من نهر حدارة، واتخذة قاعدة للملك، وأنشأ فيه عدة أبراج منيعة
منها البرج الكبير المسمى برج المراقبة Torre de la Vela، والبرج المقابل له، وأنشأ له
سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة. والظاهر أنه بنى مسكنه فى الجنوب الغربى
من الحصن، أعنى فى نفس المكان الذى يقوم عليه قصر الإمبراطور شرلكان. ومن
المرجح أن اسم الحمراء يرجع إلى قيام قصر ابن الأحمر فوق أطلال قلعة الحمراء
القديمة، وليس إلى تسميته باسمه. وقد ذكر البعض أن إطلاق اسم الحمراء على
صرح غرناطة الملكى يرجع إلى احمرار أبراجه الشاهقة، أو إلى لون الآجر الأحمر
الذى بنيت به الأسوار الخارجية. وقيل أيضاً إن التسمية ترجع إلى لون المشاعل
الحمراء التى كان يجرى البناء ليلاً على ضوءها. ولكننا نؤثر الأخذ بالتعليل الأول فهو
أقوى وأرجح. وما زالت ثمة بجوار قصر الحمراء أطلال القلعة القديمة تحمل إلى اليوم
اسم «قلعة الأبراج الحمراء» Castillo des Torres bernejas وهو ما يؤيد صحة
هذا التعليل لاسم «الحمراء» (١).

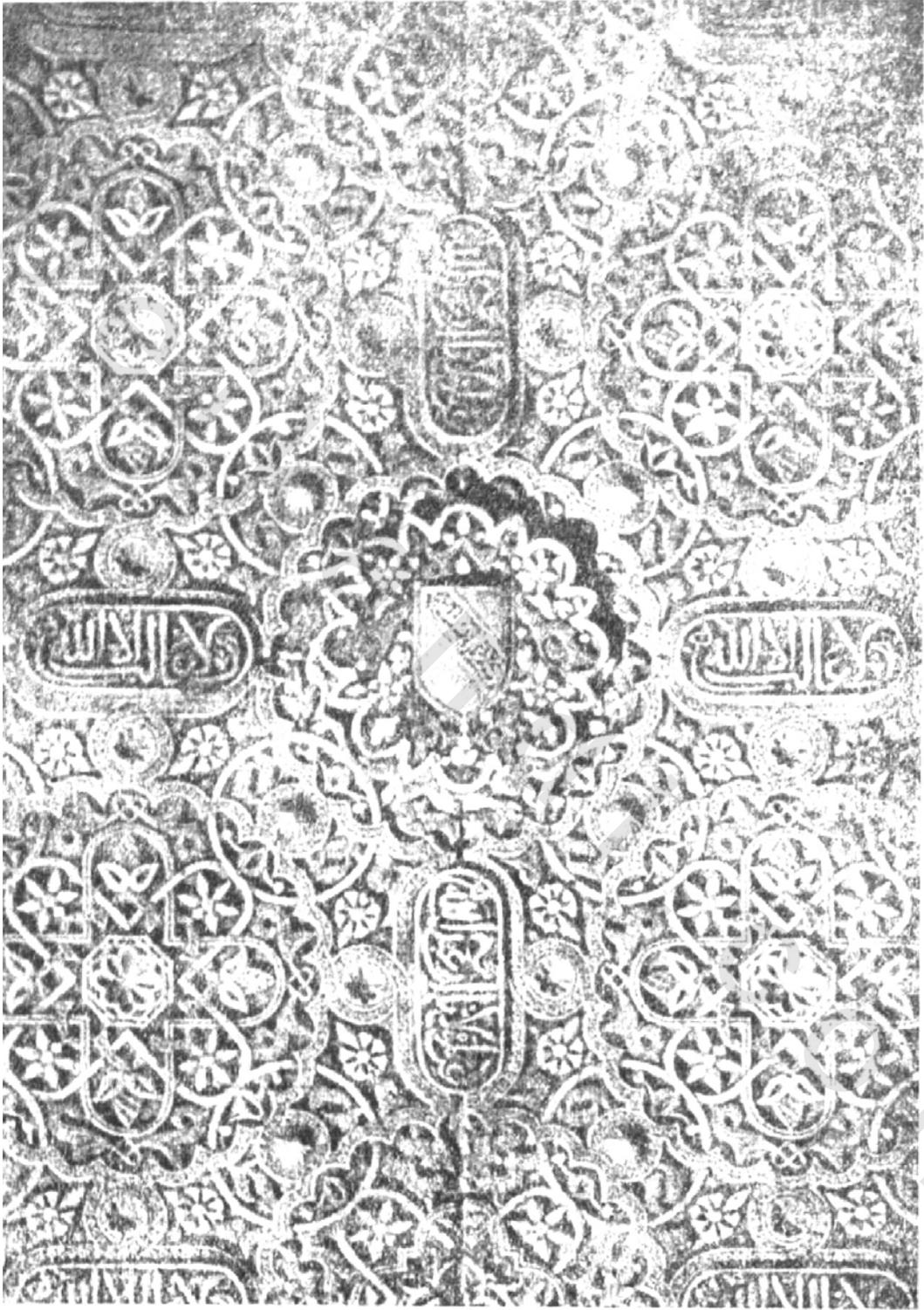
واستمر فى البناء من بعد محمد بن الأحمر، ولده محمد الفقيه الملقب بالغالب بالله،
فأنشأ الحصن والقصر الملكى فى أواخر القرن السابع الهجرى، وأنشأ حفيده محمد
إلى جانب القصر فى الجنوب الشرق منه، مسجداً بديعاً فى المكان الذى تحتله اليوم

(١) راجع مقدمة المستشرق جاينجوس لاطلس «الحمراء» Alhambra الذى تقدمت الإشارة
إليه، ص ٥ الهامش وص ٨٥٧. وراجع أيضاً المستشرق سيبولد فى Ency. de l'Islam تحت كلمة
Alhambra. وراجع دائرة المعارف البريطانية تحت نفس الكلمة.

كنيسة سانت ماري . التي بنيت في القرن السابع عشر . ولم يبق اليوم من آثار مسجد الحمراء سوى مصباح برونزي فخم محفوظ بمتحف مدريد .

وقد بنيت معظم أجنحة الحمراء الملكية في القرن الرابع عشر في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل وولده يوسف أبي الحجاج ، وابنه محمد الغني بالله . ولسنا نعرف شيئاً محققاً عن المهندسين أو الفنانين الذين قاموا على إنشائها . وتدين الحمراء بفضلها الرائعة إلى السلطان يوسف أبي الحجاج ، الملك الشاعر والفنان الموهوب ، فقد زاد في القصر زيادة كبيرة ، وأسبغ عليه روائع الفن والزخارف الداخلية الفخمة ، وأنشأ البرج الشاهق الذي يقع فوق مدخل القصر الرئيسي ، وهو المسمى « باب العدل » والذي مازال يحمل تاريخ إنشائه (٥٧٤٩ - ١٣٤٨ م) وكان اسم الحمراء يطلق على هذه المجموعة الملكية الفخمة كلها .

وتقع أبنية الحمراء فوق هضبة يبلغ طولها ٧٣٦ متراً وعرضها نحو مائتي متر ، وتشغل نحو خمسة وثلاثين فداناً . ويحيط بالحمراء سور ضخيم يتخلله ثلاثة عشر برجاً ، ويجري نهر حدارة في الوادي الواقع في شمالها . وموقع الحمراء ذو جمال طبيعي نادر ، فهي تشرف من الشمال والغرب إشرافاً شاملاً على المدينة وعلى فحوص غرناطة ، وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سيرا انفاذا (جبل شلير) . ولم يبق اليوم من قلعة الحمراء التي كانت تشغل منحدر الهضبة في الشمال الغربي ، سوى أسوارها الخارجية وأبراجها . وأما القصر الملكي فقد بقيت معظم أجزائه ؛ ويعتبر قصر الحمراء من أبداع الآثار الإسلامية التي أبقّت عليها حوادث الزمن ، وليس له مثيل في الحسن والروعة من حيث أعمدته الرخامية الرائعة ، وحناياها وسقوفه ذات الزخرف البديع ؛ ويغمره الضوء والهواء بوفرة ، ويبدو في مجموعه في منتهى الظرف والإناقة . ويلحق بالقصر بستان عظيم ، وكان أيام المسلمين منزرعاً بأشجار البرتقال والورود والريحان ، ويغص أيام الربيع والصيف بالبلايل ، ويتخلله خرابير الماء المتدفق من عدد من النوافير التي يجرى إليها الماء من نهر حدارة ، ويصل الزائر إلى البستان من باب غرناطة المسمى « باب الرمان » (Puerta de los Granadas) . وأما القصر الإسلامي Casa Real أو Palacio Arabe فالوصول إليه من باب صغير ، يصل رواق بينه وبين فناء البركة أو فناء الريحان .



من زخارف بهو المدخل الرئيسي

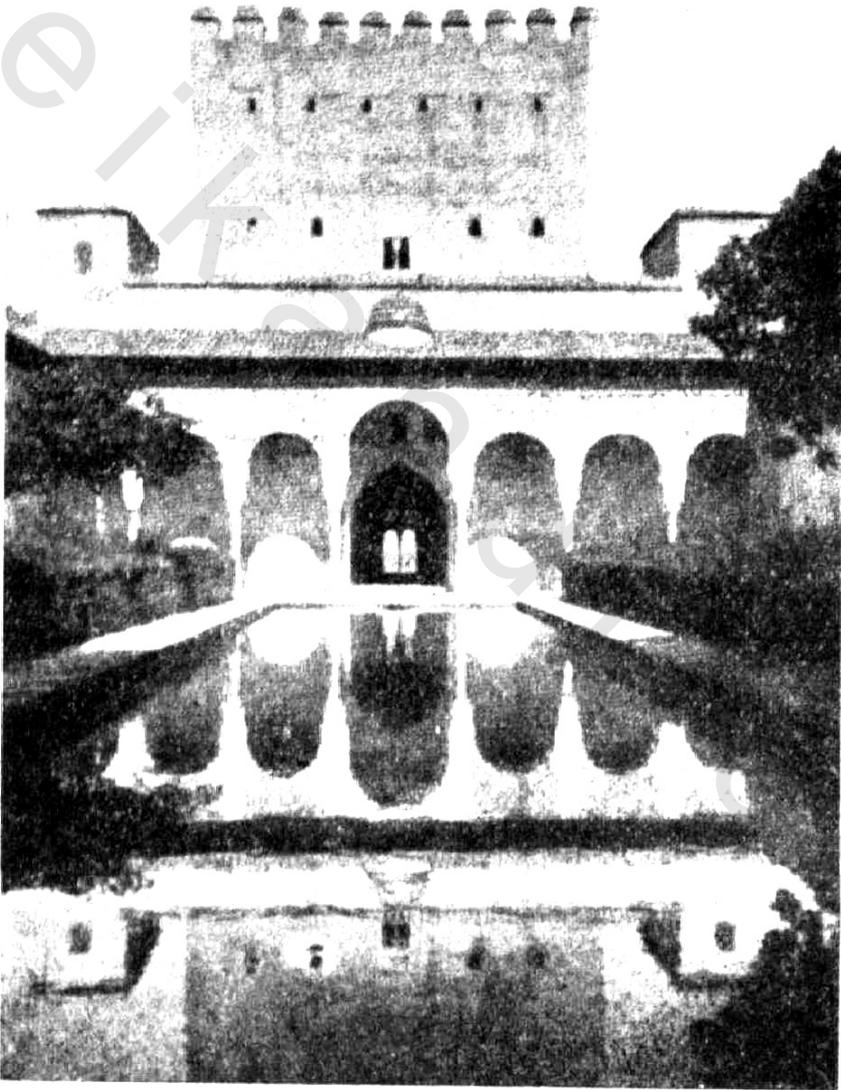
(قصر الحمراء)

ويتكون قصر الحمراء، وهو مقام ملوك بني نصر السابقين، من ثلاثة أبنية رئيسية تهدم أحدها وأضحى اليوم أطلالا دراسة.

وأما الثاني فيتكون من قصر قمارش أو بهو قمارش، وله واجهة فخمة فيها بابان كبيران؛ وقد كان هذا البناء، هو المقام الرسمي للملك غرناطة السابقين، وسمى بقصر قمارش نسبة إلى بهو العرش الذي يقع تحت برج قمارش، ويسمى هذا بهو أيضاً بهو السفراء Sala de los Ambajadores، وهو عبارة عن مربع طول ضلعه أحد عشر متراً ونصف، وعليه قبة خشبية فخمة ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً، حفرت زخازنها على شكل النجوم، وزخرفت الجدران بنفس الطراز؛ وبهو السفراء هو أعظم أبهاء الحمراء، وكان به مجلس العرش. وقد بنى معظم أجنحة هذا البناء محمد الغني بالله (٧٦٣ - ٥٧٩٣). ولهذا القصر فناء كبير على الطراز الأندلسي القديم، وفي وسطه حوض به نافورتان عند طرفه، وأخرى في وسطه، وتطل عليه أبواب ونوافذ لجانحين من أجنحة القصر؛ ويجاور بهو قمارش حمامات تمتاز بجدرانها المصقولة، وسقفها المقامة فوق أعمدة من الطراز القديم، وإلى جوار هذه الحمامات يوجد فناء آخر وحديقة.

ويتكون البناء الثالث من قصر ملكي آخر أطلق عليه حى السباع، وذلك بسبب الفناء الذي تقع فيه نافورة السباع المشهورة. وهذا القصر هو أحدث أبنية الحمراء، وفيه نقوش تشيد بذكر السلطان الغني بالله. وفناء السباع أو كورة السباع Patio de los Leones عبارة عن فناء مستطيل طوله نحو ٣٥ متراً وعرضه عشرون، تحيط به مشرفة يحملها مائة وأربعة وعشرون عاموداً من الرخام الأبيض، وفي وسطه نافورة السباع المشهورة، وهي عبارة عن حوض من المرمر، يحمله اثنتا عشر أسداً صنعت من الرخام الأبيض، ومع أنها ليست بارعة المطابقة، فإنها تبدو مخائل القوة والشجاعة. وتزعم بعض الروايات أن كورة السباع كانت مسرحاً دموياً لمصرع بعض أبناء السلطان أبي الحسن.

ويقع في جنوب كورة السباع، بهو بني سراج Sala de los Abencerrajes وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة التي لعبت دوراً عظيماً في حوادث غرناطة الأخيرة. وترجع هذه التسمية إلى قصة محزنة تروى عن خاتمة هذه الأسرة سوف نعود إليها فيما بعد. وهذا بهو عبارة عن مربع عليه قبة عالية، تتخللها من الدائرة السفلى عدة نوافذ، وقد زين سقفها بزخارف بدیعة زرقاء وبنية ومذهبة.



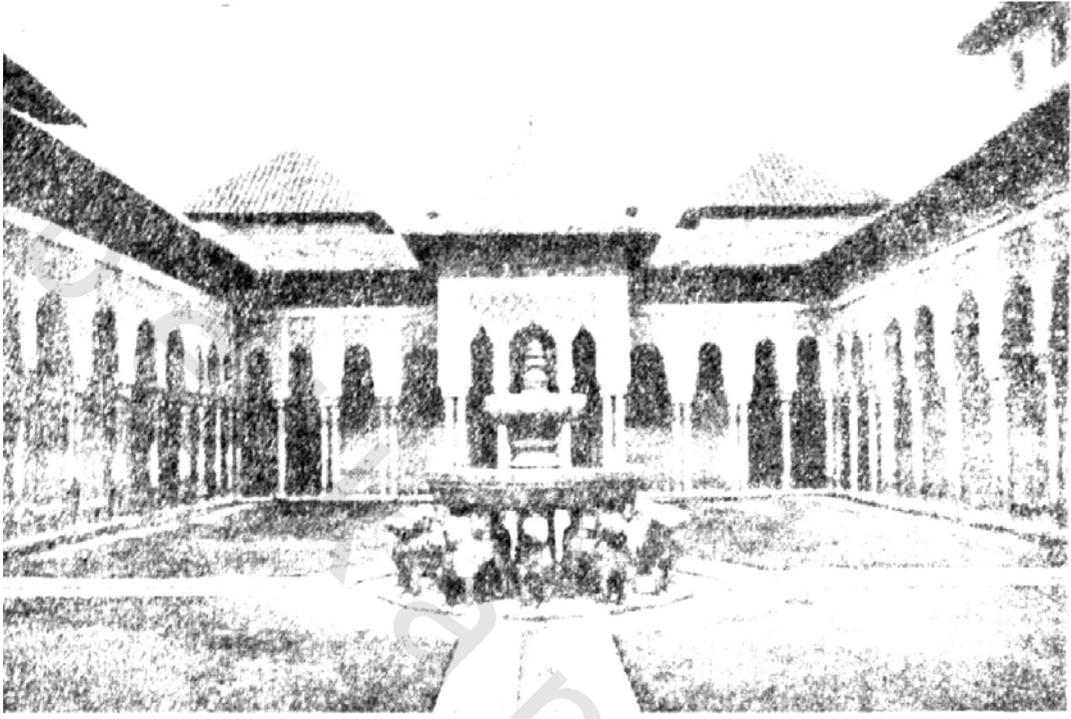
فناء البركة و برج قارش
(قصر الحمراء)

ويقع في الناحية الأخرى ، الناحية البحرية (من كورة السباع) بهو الأختين Sala de las dos Hermanes ، وفي وسطه نافورة أخرى .

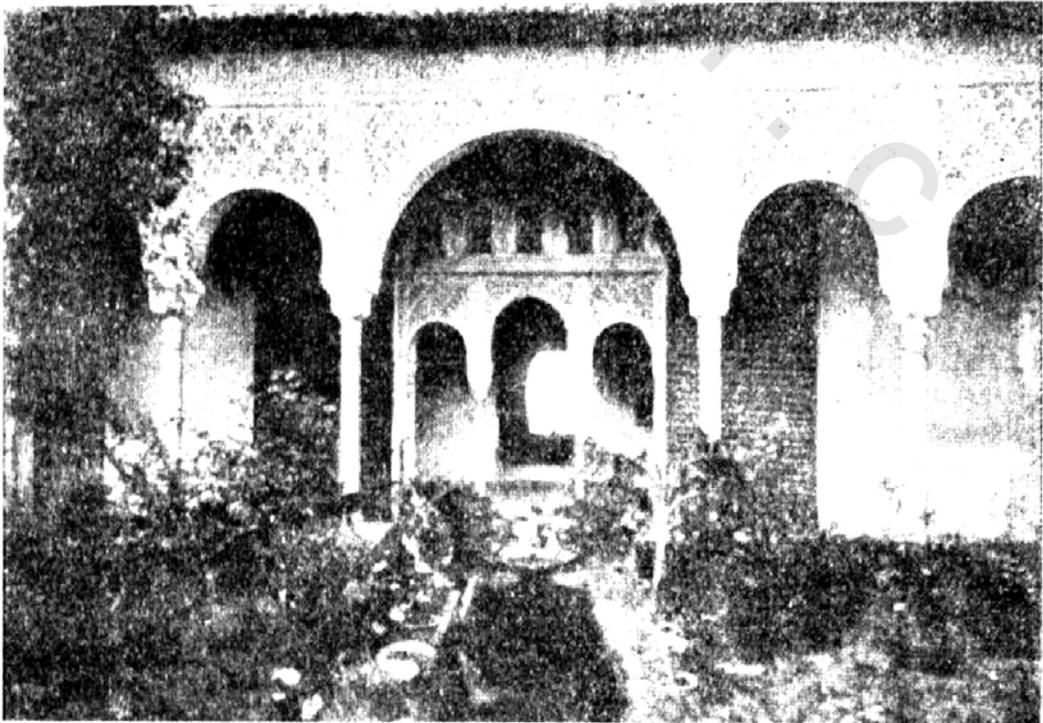
ويحتوى قصر الحمراء فوق ماتقدم . على مجلس القضاة Sala de la Justicia ومزين الملكة ، وهو بديع الزخرفة ، وعلى عدة حمامات وغرف نوم . وعلى مقبرة تظللها الحنايا ، وهى مقبرة ملوك بنى نصر .

ويلحق بقصر الحمراء ، قصر جنة العريف . وهو بناء مستقل يقع في الشمال الشرقى من القصر ، الكبير وقد بنى في أواخر القرن الثالث عشر . وكان مصيناً لملوك غرناطة .

ولم ينبج هذا الأثر الإسلامى العظيم ، عنوان الحضارة الأندلسية الباهرة ، من يد العدوان والتشويه المنظم . فقد كان مثل بناته المغلوبين ضحية للسياسة الإسبانية الغاشمة ، وقد عمل الإسبان منذ سقوط غرناطة على محو جمال الحمراء الرائع بأعمال وندالية متتالية ، فسخوا الزخارف والنقوش أو محوها ، ونقلوا الأثاث والرياش أو أتلّفوه ؛ وبنى الإمبراطور شارل كان في سنة ١٥٢٦ إلى جانب الحمراء في الجنوب الغربى منها قصرأ جديداً ، وخرّب معظم القصر الشتوى القديم ليفسح مكاناً للقصر الحديد . وعمل فيليب الخامس (١٧٠٠ - ٤٦) على مسح طراز الغرف العربى ، واستبداله بالطراز الإيطالى ؛ وأتم تشويه القصر باقامة حواجز سدت المنافذ والطرق بين مختلف الأجنحة . وعلى الحملة فقد تركت الحكومات الإسبانية المتعاقبة هذا الأثر الإسلامى البديع في زوايا الإهمال ، وأسلمته إلى يد الغفء والتخريب ، ولم تعن بإصلاحه وترميمه في العصور الأولى لإمرة واحدة ، في أواسط القرن السادس عشر . وفي سنة ١٥٩٠ وقع بالحمراء حريق تسبب عن انفجار مصنع بارود مجاور ، فأصابها باضرار كبيرة . ومنذ القرن السابع عشر تغلب مظاهر الخراب على الحمراء ، ويسودها النسيان والوحشة . وفي سنة ١٨٠٢ نسف الفرنسيون بعض أبراجها ولم ينبج القصر إلا بأعجوبة . وفي أواسط القرن التاسع عشر ، أفاقت الحكومة الإسبانية من سباتها الطويل ، وعنيت بإصلاح الحمراء ، واستمر الترميم والإصلاح فيها حتى أواخر هذا القرن . هذا وما زالت الحمراء بالرغم من هذا الإهمال الطويل والوندالية المنظمة ،



بهو الأسود أو كورة السباع (قصر الحمراء)



والإصلاح الغاشم ، تعتبر أكمل نموذج للفن الأندلسي في تطوره الأوربي النهائي ، بعد تحريره من أثر الفن البيزنطي الذي يبدو في جامع قرطبة ، ويبدو بشكل أوضح وأكثر إغراقاً في قصر إشبيلية (الجيرالدا) (١) .

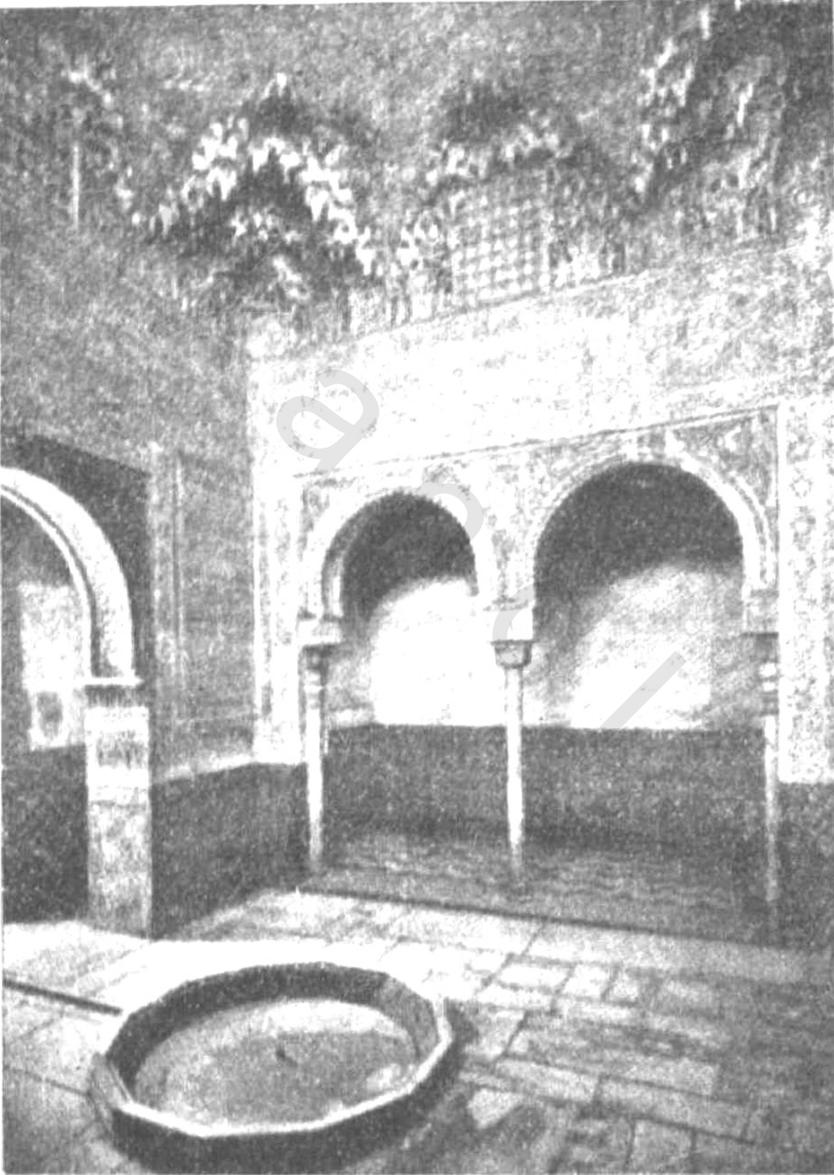
* * *

وقد لبثت الحمراء بأبراجها المنيعة ، وأجنحتها الملوكية البديعة زهاء قرنين مُقَاماً فخماً للملك غرناطة ، وحصناً أميناً يعتصمون به وقت الخطر والأزمات العامة . حتى شهدت في النهاية ذهاب ملكهم . كما شهدت من قبل عظمتهم وسلطانهم . وإلى جانب الحوادث التاريخية التي كانت الحمراء مسرحها ، والتي فصلناها في مواضعها ، تتبوأ القصة والأسطورة في تاريخ الحمراء مكاناً كبيراً ، وتقدم للقصصي مادة شائقة مؤثرة . ويرجع معظم هذا القصص إلى الفترة الأخيرة من حياة مملكة غرناطة ، وإلى حوادث مصرعها النهائي ، وقد كانت الحمراء كما رأينا مسرح كثير من حوادث المأساة ، وكانت بالأخص مسرح فصلها الختامي .

أجل إن للحمراء إلى جانب تاريخها الحافل ، تراثها من القصص والأساطير ، وهو تراث يمتزج أحياناً بالتاريخ الحق ، ويجنح أحياناً إلى الأسطورة الشائقة . بيد أنه يثير الشجن دائماً ، وينفث الإعجاب والسحر . ذلك أنه مستمد من الحوادث والذكريات العظيمة ، التي ترتبط بتاريخ غرناطة ، ومن الروايات المؤثرة التي ذاعت عن مصرعها ، وعن بسالة فروسها ، حين المعركة الحاسمة ، وعن خلال مجتمعتها ، ومخاوفه وهواجسه وآماله . وإذا كان المؤرخ لا يجد في هذا التراث دائماً ، مادة وثيقة يستطيع الوقوف بها ، فإنه يجد على الأقل صوراً مؤثرة مما تسبغه الروايات المعاصرة ، على تلك الحوادث العظيمة ، من ألوان الروع والشجن والأسى .

وفي هذه الحوادث المشجعة يغلب التاريخ على الرواية والقصة . ولكن توجد إلى جانب ذلك طائفة من الأساطير الشائقة ، التي أحاطت بها الرواية الإسبانية قصة الحمراء ، وقصة أمهاتها وأبراجها . وأول ما يروى في ذلك أن منشىء قصر الحمراء السلطان محمد الغالب بالله (٦٧١ - ٥٧٠١ هـ) كان ساحراً ، وأنه استعان بالسحر

(١) دائرة المعارف البريطانية في مقال Alhambra . هذا وقد رجعتنا في كتابة هذا الفصل أيضا إلى كتاب Alhambra المنشور بمناية السينور M. Gomez - Moreno ق سلسلة El Arte en Espana



۲- و بی سراج
(قصر الحمراء)

والشياطين في إنشاء الحصن والقصر ، ومن ثم استطاعت الجدران والأبراج المنيعة أن تغالب فعل الحوادث والعواصف والزلازل حتى يومنا ، دون أن تتصدع أو تنهار . والسر في ذلك يرجع إلى الطلاسم والتعاويد السحرية التي تحمي البناء من كل شر . وتقول الأسطورة إن الحمراء لن تنهدم أو تسقط إلا حين يميل اللسان المثبت في أسفل البرج الخارجى ، ويصل إلى موضع القفل ، فعندئذ تنهار الحمراء دفعة واحدة ، وتنكشف جميع الكنوز التي أودعها المسلمون في أعماقها .

وعلى ذكر هذه الكنوز تقول الأسطورة إن المسلمين عندما سقطت غرناطة في أيدي النصارى ، كانوا يعتقدون أن سقوطها حادث مؤقت ، وأن دولة المسلمين في الأندلس لن تلبث أن تعود قوية عزيزة ، وأن بعدهم عن أوطانهم لن يطول ، ولذلك عمدوا إلى إخفاء ذخائرهم وحليهم وأموالهم في أعماق الحمراء ، في جوانب متعددة منها ، وأهم بلأوا في حفظها وحمايتها إلى السحر ، فرصدوا لحفظها الطلاسم والأسماء . وقد يبدو حراسها أحياناً في صور مرده أو وحوش ، أو فرسان مسلمين مدججين بالسلاح ، يسهرون عليها أبد الدهر ، جامدين لا يغمض لهم طرف . وليس في الحمراء برج أوجوه أوقاعة إلا اقترن ذكرها بقصة هذه الكنوز الخفية ، وكانت الأسطورة تضطرم من عصر إلى آخر ، ولا سيما في جنوبي اسبانيا كلما كشفت المباحث الأثرية في أنحاء الحمراء أوحولها ، عن بعض النقود والتحف الإسلامية .

وتقدم إلينا الرواية بعض الأساطير المروعة عن « بهو الأسود » والبهو الذي يقابله وهو المسمى بهو بنى سراج . فأما بهو الأسود فتزعم الرواية أنه كان مسرحاً دموياً لمصرع بعض أبناء السلطان أبى الحسن كما قدمنا . وأما بهو بنى سراج فتقول الرواية إنه كان مسرحاً لمصرع بنى سراج أعرق الأسر الغرناطية وأوفرها جاهاً وفروسة ، وكانت في أواخر عهد السلطان أبى الحسن قد انتظمت إلى جانب خصومه ، وأمعت في مناوئته ، فقرر إهلاكهم . وقيل إن عميدهم محمد بن سراج ، وهو من أكابر الفرسان والسادة ، هام بحب أميرة من البيت المالك ، فوجد عليه السلطان وقرر سحق الأسرة كلها . ودبر مع ولده أبى عبدالله كميناً لإهلاكهم ، فدعا أكابرهم ذات مساء إلى حفل أقامه ، وأدخلوا واحداً بعد واحد بترتيب معين ، من باب البهو المذكور ، وكلما دخل أحدهم بادره القتل ونجروه على حافة النافورة الرخامية ، حتى أعدموا

جميعاً ، وفقدت الأسرة كل أنجادها . وسمى المكان من ذلك الحين « بهو بنى سراج » . وما زالت بقع سوداء في أرض البهو الذي وقعت فيه المأساة تقول الرواية إنها بقع دم القتلى ، وأنها لن تمحى قط ، وتزيد الأسطورة على ذلك أنه مازالت تسمع في ذلك البهو في بعض الليالي أنات خافتة ، وقعقة سلاح ، وأنه حدث أكثر من مرة أن رأى حراس الحمراء في جوف الليل ، بعض الجند المسلمين ، وقد لمعت أثوابهم الزاهية وأسلحتهم البراقة ، يقطعون البهو جيئة وذهاباً (١) .

وهناك طائفة كبيرة من الأساطير الغرامية ، تروى عن الملوك والسادة الذين سكنوا الحمراء ، وعن أمهاتها الفخمة وأبراجها القائمة ، ويقال إن كثيراً من الأميرات والغيد الحسان الذين استحقوا اللعنة الملكية زجوا إلى أقبيتها أو أبراجها السحيقة وأعدموا في ظلماتها . ومن ذلك ما تزعمه الأسطورة من أن سلطاناً مستبداً من سلاطين غرناطة سجن بناته الثلاث في أحد أبراج الحمراء ، ولم يك يسمح لهن إلا بالتريض ليلاً في بعض التلال المجاورة بحيث لا يراهن إنسان قط ، وأن أولئك الأميرات الثلاث مازلن يظهرن في بعض الليالي المقمرة في هاتيك التلال ، يمتطين جيادهن الفخمة ، وتسطع حلبيهن النفيسة تحت أشعة القمر ، فاذا حاول إنسان أن يخاطبهن أو يزعبهن ، اختفين في الحال تحت جنح الظلام .

وقد ذاعت هذه الأساطير عن الحمراء وعن ملوكها ، ودونت عقب سقوط غرناطة ، في بعض التواريخ والقصص المغربي . ومن ذلك كتاب ظهر في أواخر القرن السادس عشر عنوانه « حروب غرناطة الأهلية » *Guerras civiles de Granada* وزعم مؤلفه ، وهو إسباني من أهل مرسية يدعى جينز بيرث دى هيتا أنه نقله عن

(١) يلاحظ أن الرواية الإسلامية لا تتحدثنا عن هذه المأساة بشيء . ولكن الرواية والأغاني الإسبانية تكثر الحديث عنها . وقد كانت حوادث هذه المأساة المزعومة وما اقترن بها من الأساطير مستقى خصباً لكتاب القصص . وقد وضع الكاتب الفرنسي شاتوبريان عن بنى سراج قصة عنوانها *Mémoires du dernier Albencérrages* (*Aventures du dernier Albencérrages*) يتحدث فيها عن فتى أندلسي هو آخر سليل لبني سراج ، وكانت الأسرة قد نزحت إلى تونس عقب سقوط غرناطة ، وعاشت هنالك في فقر وضعة ، فاعتزم الفتى أن يهجر إلى غرناطة موطن آبائه القديم ، وهناك هام حبا بفتاة إسبانية رائعة الحسن ، وهامت بحبه ، ولكن اختلاف الدين حال دون زواجهما ، فارتد الفتى المسلم إلى الصحراء وانقطع أثره ، وعاشت حبيبته في عزلة محتفظة بحبه وذكره .

مؤلف لكاتب أندلسي يدعى ابن أمين ، وهو مزيج من بعض الوقائع التاريخية المحرفة ، وكثير من القصص الخرافية ، ويدور معظمه على حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية ، ومنافسات بني سراج وبني الثغرى وغيرهم من أنجاد غرناطة . وقد ذاع المؤلف في اسبانيا ولاسيا في ريف الأندلس ، وترجم إلى لغات عديدة . بيد أنه يبدو من سياقه أنه لا يمكن أن يكون ترجمة لرواية عربية ، وكل ما هنالك أنه مزيج من بعض الأساطير النصرانية والشعبية ، التي ذاعت في ذلك العصر عن حوادث غرناطة ، وأذكاها خيال الأخبار والفرسان ، وأذكتها بالأخص عوامل دينية وسياسية خاصة .

هذا بعض ما يروى من قصص الحمراء وأساطيرها . وإذا كان المؤرخ لا يستطيع أن يقف بهذا التراث المغرق من القصص والأساطير ، فإنه يستطيع على الأقل أن يستخرج منه مغزى بليغاً ، وهو مغزى يتم في كثير من الأحيان عما كان للأندلس المسلمة في اسبانيا وفي الغرب ، من عظيم الهيبة والشأن ، وما كان لذكريات غرناطة وحمراءها من بالغ الروع والسحر والإجلال (١) .

* * *

ورحم الله شوقي إذ يقول في سينيته الأندلسية الشهيرة في رثاء الحمراء :

لا ترى غير وافدين على التا	ريخ ساعين في خشوع ونكس
نقلوا الطرف في نصارة آس	من نقوش وفي عصارة ورس
وقباب من لازورد وتبر	كالربي الشم بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت للمعاني	ولألفاظها بأزين لبس
وترى مجلس السباع خلاء	مقفر القاع من ظباء وخنس
لا « الثريا » ولا جوارى الثريا	ينزلن فيه أقمار إنس
مرمر قامت الأسود عليه	كلة الظفر لينات المجلس
تنثر الماء في الحياض جمانا	يتنزي على ترائب ملس
آخر العهد بالجزيرة كانت	بعد عرك من الزمان وضرس

(١) رجعنا في ذلك عدا المصادر العربية ، إلى واشنطنون إيرفنج في كتابه Conquest of Granada و Tales of the Alhambra . وكذلك برسكوت في كتابه History of Ferdinand and Isabella

يا ديارا نزلت كالحلحله ظلا
لا تحس العيون فوق رباها
كسيت أفرخي بظلك ريشا
هم بنو مصر لا الجميل لديهم
من لسان على ثنائك وقف
حسبهم هذه الطلول عظات
وإذا فاتك التفات إلى الما
وجني دانيا وسلسال أنس
غير حور نحو المرافف لعس
وربا في رباك واشتد غرسى
بمضاع ولا الصنيع بمنسى
وجنان على ولائك حبس
من جديد على الدهور ودرس
ضى فقد غاب عنك وجه التأسى